

غاندي الإنسان

عنوان الكتاب: غاندي الإنسان
العنوان الأصلي: Gandhi the Man
تأليف: إكناث إيسوران
ترجمة: غياث جازي
إخراج: نبيل سلامة
الغلاف والصور: دارين أحمد

© جميع الحقوق محفوظة للدار
الطبعة الأولى، 2013

معايير للنشر والتوزيع
سوريا، دمشق
ص ب: 5866
هاتف: 00963 - 11 - 3312257
بريد إلكتروني: maaber@scs-net.org

غاندي الإنسان

إكناث إيسوران

ترجمة: غياث جازي

لمحة عن المؤلف

ترعرع إكناث إيسوران Eknath Easwaran في ولاية كيرالا Kerala في بلاد الهند أيام غاندي في كنف عائلة والدته، في بيئة يسودها التدين الهندوسي الأصولي. ولم تمض فترة طويلة على تخرجه من الجامعة حتى قام بزيارته الأولى لغاندي بدافع اكتشاف سرّ عظمة هذا الرجل. بعد بضع سنوات، وكان آنئذ يمارس التأمل بلا كلل بإلهام وتوجيه من جدّته، معلّمته الروحية، تابع إيسوران مسيرته الناجحة في مهنتي الكتابة والتدريس. كان عميداً لقسم اللغة الإنكليزية في إحدى أكبر الجامعات الهندية حين واثته الفرصة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بناء على برنامج فولبرايت للتبادل الأكاديمي Fulbright Exchange Program. وفي العام 1960، أسس "مركز الجبل الأزرق للتأمل" Blue Mountain Center of Meditation في بيركلي، كاليفورنيا. ومنذ ذلك الحين، كرّس نفسه كلياً لتعليم التأمل لأولئك الفاعلين الاجتماعيين في أوساط عائلاتهم ومجتمعاتهم المحلية.

إضافة إلى مؤلّف "غاندي الإنسان" Gandhi the Man، كتب إيسوران: "التأمل" Meditation، "دليل التلاوات" The Mantram Handbook، "البهغفاد غيتا للحياة اليومية" The Bhagavad Gita for Daily Living، "حوار مع الموت" Dialogue with Death، و"الطموح الأسمى" The Sepreme Ambition. كما جمّع وصنّف كتاب "الله يجعل الأنهار تتدفق" God makes the Rivers to Flow، وهو مجموعة من النصوص حول التأمل منتقاة من الكتب المقدسة ومن كتابات المتصوفة في شتى أنحاء العالم. ونشر ترجمته

للا "كاثا أوبنيشاد" The Katha Upanishad، و"ثلاث أوبنيشادات" Three Upanishads. وهو يكتب أيضاً مقالات في مجلة مركز الجبل الأزرق
الفصلية The Little Lamp.

تصدير

"سينظر المؤرخون في المستقبل، كما أعتقد، إلى القرن العشرين ليس بوصفه العصر النووي، بل على أنه عصر غاندي".

سمعت هذه الإفادة البليغة للمرة الأولى في العام 1966؛ كانت المناسبة محاضرة ألقاها أستاذ زائر، اسمه إكناث إيسوران، في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. لقد أعجبت بوجهة النظر تلك، لكن لم يحدث لي قط أن تعاملت مع الكلمات بمعناها الحرفي. والآن، أتمعن في ذلك. كل عام، في ما يبدو، تبادر شخصية تحظى بشهرة ما - ربما ي. ف. شوماخر هو الأبرز بنظر الجمهور في الوقت الراهن - إلى الإقرار بفضل غاندي في حقل عملها: اقتصاد، تعليم، سياسة، فلسفة، وأنظمة غذائية وعناية بالصحة حتى. وينظر إليه النشطاء الاجتماعيون كمؤسس للنهج اللاعنفي، فسار العديد منهم على خطاه، ومن بينهم الدكتور مارتين لوثر كنج الابن، الذي أحدث تغييرات عميقة وراسخة في البنية الاجتماعية لبلادنا. وقد أسبغ عليه مؤخرًا مراقب بقامة لويس مُمفورد صفة "الشخصية الورعة الأهم شأنًا في عصرنا". ولعل أفضل من لخص ذلك نصير السلام الأمريكي الدؤوب كيري بيغ الذي كان قد التقى أواخر أيامه، في العام 1957، كل الشخصيات العامة البارزة التي كانت تثبت حضورها في مشهد القرن العشرين. كتب بيغ: "عندما دوّنت للمرة الأولى انطباعاتي، اختتمت عنوان كراستي بعلامة استفهام، هل المهاتما غاندي هو الرجل الأكثر عظمة في هذا العصر؟ ومدّك انمحت علامة الاستفهام من ذهني".

لكن السؤال عن كيفية تحقيق غاندي هذه العظمة ما يزال راهناً وملحاً، وهو السؤال الأكثر مدعاة للاستقصاء من بين كافة الأسئلة. ولكون كل من هذه الإنجازات يمثل جزءاً واحداً لا غير من شخصية الرجل، لا يمكن حقاً فهم أي جزء ما لم نكشف أولاً عن الشخصية ذاتها. يقول غاندي: "حياتي كلّ لا يتجزأ، فحقول نشاطي كافة تتواصل مع بعضها البعض...". فإنجاز غاندي الحقيقي لا يكمن في ميدان واحد بحد ذاته، بل في المهمة الأكثر أهمية التي تواجه كل رجل وامرأة وطفل على وجه البسيطة: واجب العيش. كيف تمكّن غاندي، كما يصيغ السؤال إيسوران، من "جعل حياته على مثل هذا القدر من النموذج الإبداعي الناجز؟". بداية، عندما تلقى نظرة على سيرة غاندي نجده شاباً خجولاً للغاية ويفتقد إلى الجاذبية، ميزته الوحيدة هي هلع ملحوظ من الظلمة - وأذنيه الكبيرتين بشكل غير عادي، كما كان يحب أن يقول. كيف غدا زعيماً جذاباً لم يكن بمقدور حتى خصومه المعلنين مقاومته؟ كيف تعلم هذا الشاب ذو الطبع العنيف أن يبقى هادئاً منشراح الصدر أمام كل أشكال الانتقادات المتعسفة، وأن يبدو في تعامله مع خصمه كصديق افتقده طويلاً؟ باختصار، كيف تمكّن من توسيع الشخصية الضئيلة الضيقة لموهنداس ك. غاندي ليصبح مهاتما. القوة الهائلة للرقىّ الإنساني التي وُصفت في سير ذاتية لا حصر لها لكنها لم تُفسّر في أيّ منها؟

هنا يجيء دور الميزة العظيمة لشارح مثل إكناث إيسوران. لقد أبصر إيسوران النور في الهند أيام غاندي التي كانت آنذاك درّة تاج الإمبراطورية البريطانية. كانت قريته الجميلة، حالها كحال معظم القرى في جنوب الهند، تقع خارج دائرة ما كان سائداً من اختمار سياسي الذي نقدّه كتاريخ. لم يكن

لغاندي التأثير الأعظم في حياة إيسوران، وإنما لجدته، المرأة التي يعتبرها بمثابة معلّم روحي له - امرأة بسيطة مجبولة من طينة روحانية عظيمة، مغمورة تماماً في سجلات التاريخ، لم تغادر قط قرية أجدادها ولم تشارك قط في أية حركة اجتماعية أو ما شابهها. كان لما أورثته لإيسوران وقعاً أعمق بكثير من الحركة من أجل استقلال الهند: التقاليد الروحية الغنية للهندوسية، التي يمتد عمرها ربما إلى خمسة آلاف سنة، بمثلها العليا - اللاعنف، المحبة، الخدمة الغيرية - التي كانت فيها قدوة في حياتها اليومية الخاصة. وما إن كبر إيسوران حتى جرفته الحياة بعيداً عن حدود عالم جدته، كحضور مادي وفكري. كان كاتباً واعداً ومحاضراً ناجحاً في أواسط الهند عندما ذهب للقاء غاندي في ذروة الحركة من أجل استقلال الهند. لكن التقليد الروحي المنقول له عن جدته هو ما مكّنه من رؤية ما وراء غاندي السياسي: غاندي الإنسان.

لقد خلّفت قصة لقاء إيسوران مع غاندي انطباعاً عميقاً لدي. ولعني استشعر لهيب الشمس الحارقة في ذلك السهل المُعبر في عزّ الظهيرة حيث قطع إيسوران بضعة أميال تفصل بين محطة القطار في بلدة واردها Wardha وتجمّع الأكواخ الطينية الذي عمّده غاندي باسم سيفاغرام Sevagram، "قرية الخدمات"، وكان يبعث فيه الحياة بأناة وطول صبر من أجل قرابة الأربعمئة مليون شخص. فهناك أمضى إيسوران ساعات ما بعد الظهر يراقب بهدوء، حذراً من التطلّع على أي أحد. كان آنذاك يمثّل نوعاً من الحجيج مختلفاً بعض الشيء عن أولئك الذين كانوا يتجمعون حول غاندي حيثما ذهب. لم يأت ليكي يعاين طراز غاندي السياسي، أو لكي

يرضي فضوله الفكري. ولم يأتِ، كحال الشخصيات الهامة في دلهي، التماساً لقرار حول قضية سياسية ذات شأن، أو طلباً لمشورة شخصية، كحال العدد الغفير من العامة الذين كانوا يحظون بإذن متساوٍ لمقابلة غاندي. لقد راقب إيسوران، بعين الشاب، جموع الشباب الآخرين، ذكوراً وإناثاً، يغادرون مقاعد الدراسة للانضمام إلى حركة غاندي متحوّلين إلى أبطال وبطلات بتأثير من المهاتما. يتذكر إيسوران ببساطة: "أردت أن أعرف سرّ قوته".

في اجتماع الصلاة في ذلك المساء في سيفاغرام، نال إيسوران مراده. فقد عاد، بصحبة الآخرين من الأشرم، مع غاندي من مسير ما بعد العشاء الباعث على الحيوية في مساء بارد نسبياً واستقر حول الشجرة التي جلس غاندي قريبا. بدأ مهاديف ديساي، سكرتير غاندي، بقراءة أشعار الكتاب المقدس الهندي الأكثر ذخراً، بهغفاد غيتا: "يعيش في الحكمة ويرى ذاته في الكلّ والكلّ في ذاته، محبته لإله المحبة أفنت كل رغبة أنانية وشهوة حسية تُلَوِّع القلب...". وبينما كان إيسوران يراقب، كان الجسد النحيل الأسمر الجالس أمامه يكبر بلا حراك، مستغرقاً في التأمل على وقع تلك الأشعار. يتذكر إيسوران: "كنت أراه، أرى التحول الذي يصفه".

الهند هي أرض التناقضات الواسعة، والوحدة المتجدّرة أيضاً. فالقوة الروحية التي لمحها إيسوران في غاندي ذلك المساء بدت للعيان على شبه القارة الهندية مرات لا تحصى، ومع أن حيوات أولئك الذين تغيّروا قد تبدو شديدة الاختلاف، فإن القوة هي نفسها. في ما بعد، عندما كرّس إيسوران نفسه لممارسة التأمل لكي يحوّل حياته الخاصة، كان النموذج الذي جاهد لكي يحاكيه شديد الشبه بجده. لكنه تعلّم من غاندي، الذي كانت حياته

كتاباً مفتوحاً، كيف يترجم المثال الأعلى للجنس البشري إلى العيش اليومي. كان غاندي عنيداً؛ ففي بلد كانت تنقله قيود التقاليد على الدوام، كان غاندي يحدث تغييرات في طريقة عيشه، مجتنباً الشوائب، إلى أن وافته المنية. كانت البهجة غيتا - "مرجعي الروحي"، كما كان يردد - دليلاً في كل هذه التجربة، كما جعلها إيسوران دليلاً له أيضاً. وعلى الرغم من كل الفوارق الظاهرية بين الرجلين، فقد استفاد كل منهما من الغيتا لصياغة حياته. وعندما يفسر لنا إيسوران تحوّل غاندي فإنه يقوم بذلك استناداً إلى تجربته الشخصية الخاصة.

في الفصول الدراسية التي أعلم فيها في جامعة كاليفورنيا، غالباً ما أستفيد من مرجع وثائقي ممتاز عنوانه "هند غاندي"، وهو مجموعة من المقابلات أجرتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC مع العديد من الأشخاص الذين عرفوا غاندي أو شاركوا في حركته. ومن بين أولئك الأشخاص امرأة تدعى أشا ديفي، التي هي بالنسبة لطلابي ولي نجمة العرض. فعندما تُسأل: "ما هي الخصائص المميزة لغاندي؟ صفي الانطباع الغالب الذي كان يخلفه لدى المرء"، تُلخّص سرّ غاندي الإنسان في ثلاثة كلمات: "إنها محبته العظيمة". عندها، بيدي مُعدّة المقابلة شكّاً غالباً ما يسمعه المرء بخصوص شخص في منزلة غاندي الرفيعة: "ألا تعتقد أنه لم يكن واقعياً بعض الشيء، حيث أخفق في الاعتماد على حدود قدراتنا؟". يصعب نقل وميض البهجة في عيني أشا ديفي وهي تجيب: "ليس هناك من حدود لقدراتنا".

إنه الصوت الأصيل للغيتا - أو للكتاب المقدس أو القرآن، بقدر ما يتعلق الأمر. نحن لسنا نتاج تنشئتنا أو مورثاتنا، على الرغم مما نسمعه الآن

من الكثير من العلماء. فبوصفنا كائنات بشرية، لا تكمن عظمتنا في كوننا قادرين على إعادة صياغة العالم المحيط بنا - تلك هي أسطورة "العصر النووي" - بقدر ما هي في كوننا قادرين على إعادة صياغة أنفسنا. لقد وُلدنا جميعاً من أجل المثال الجليل للاعنف والحقيقة، وإذا كان بوسعنا استمداد الانتقاد من هذا المثال، فما من ضير أن يكون الجسد وريثاً لذلك الذي يمكن أن يمنعنا من الارتقاء إلى مكانتنا الإنسانية الكاملة. هذا ما كسبته آشا ديفي من غاندي، وهذا ما حاول إيسوران إيصاله في الصفحات التالية. وآمل أن تصل هذه الطبعة الجديدة من "غاندي الإنسان" إلى قراء أكثر يمكن أن يقولوا، كما قال الكثير من قراء الطبعة الأولى: "لقد أعانني هذا الكتاب على تغيير حياتي".

مايكل ناغler

جامعة كاليفورنيا، بيركلي

التحول

لم يكن ثمة ما يميز الفتى موهنداس كرمتشند غاندي Mohandas Karamchand Gandhi، ربما باستثناء خجله المبالغ فيه. لم يكن يمتلك مهارات استثنائية، وأمضى سنوات الدراسة كطالب متوسط المستوى أو أقل: متحفّظ، جدّي، متعلّق بشدة بوالديه، وبالكاد يدرى ما يحدث خارج مسقط رأسه، البلدة الساحلية الوداعة. في تلك الفترة، نهاية القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية البريطانية في ذروة غناها وجبروتها، ممتدة في أصقاع كثيرة من العالم، بما فيها الهند التي كانت آنذاك تزرع للقرن الثاني على التوالي تحت الهيمنة البريطانية.

"وُلدتُ في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1869 في بوربندر Porbandar، التي تسمى أحياناً سودمابوري Sudamapuri، وأمضيت طفولتي فيها. أتذكر دخولي إلى المدرسة، واجتيازي، بشيء من الصعوبة، امتحان جدول الضرب. وفي الواقع، لا أتذكر من تلك الأيام أكثر من تعلّمي، كحال الفتيان الآخرين، نعت أستاذنا بما هبّ ودبّ من النعوت، مما يشير إلى أن ذهني كان خاملاً وذاكرتي فجّة".

"كنت بطبعي خجولاً جداً ومتجنباً لكل صحبة؛ كانت كتبي ودروسي هم رفاقي الوحيدين. أكون في المدرسة مع قرع جرس بداية الدوام وأهرع عائداً إلى البيت حالما تقفل المدرسة أبوابها - ذلك كان روتيني اليومي. أهرع عائداً - وأعني ذلك حرفياً - فلم أكن أطيق التحدث مع أي كان. كنت أخشى أن أكون موضع سخرية من الآخرين".

"علاوة على ذلك، كنتُ جباناً. كان يلازمي الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعي. لم أكن أجروء على تخطي عتبة الدار ما أن يحل الظلام. كانت الظلمة مصدر رعب بالنسبة لي. وكان يستحيل علي النوم في الظلام، إذ كنت سأتخيل أشباحاً قادمة صوبي من جهة، ولصوصاً من جهة أخرى وأفَاعٍ من جهةٍ ثالثة. لذا لم يكن بمقدوري النوم بلا نور في الغرفة".

تزوج غاندي في سن الثالثة عشرة، وكان لا يزال في المدرسة الثانوية. وكتب فيما بعد أن هذا السن كان "مبكراً إلى حد منافٍ للعقل" من أجل الزواج. لكن كاستورباي Kasturbai كانت شابة فائتة، وسرعان ما تعلم غاندي دور الزوج المشبوب العاطفة والغيور والمتطلب. كان لكل من الزوجين الطفلين هواه ومزاجه الخاصين، لذا اتخذ الزواج مساراً عاصفاً منذ البداية. ففي ذهن غاندي الشاب أنه كان معلماً لكاستورباي، ليكتشف لاحقاً أنها هي - بنموذجها الحليم - من كان يعلمه. ولا بد أن صبرها وقوتها وطاقتها على التحمل والصفح ضربت جذراً عميقاً في نفسه خلال تلك السنوات الباكرة، لم يُزهر إلا حين بدأ حملاته في جنوب أفريقيا التي امتدت سنوات عدة.

"لا بد لي من الاعتراف أنني كنت مُغرماً بها بشدة. كنت أفكر فيها حتى عندما أكون في المدرسة، ولم تكن تفارقني قط فكرة هبوط الليل ولقائي بها. لم أكن أحتمل فراقها. وقد اعتدت على إبقائها ساهرة إلى وقت متأخر من الليل وهي تصغي إلى أحاديثي الهذرة".

"كيف يمكنني مكاشفة زوجتي النائمة إلى جانبي بمخاوفي، وهي ليست طفلة، وإنما فتاة خطت للتو أولى الخطوات في عالم الشباب؟ كنت أعرف

أنها تفوقني شجاعة، مما كان يشعرني بالخجل من نفسي. لم تكن تعرف الخوف من الأفاعي والأشباح. كان باستطاعتها الخروج إلى أي مكان في الظلام".

تخرّج غاندي من المدرسة الثانوية بمعدل متوسط وأصر بعناد على الالتحاق بالجامعة. كان لديه طموح ما غامض في أن يصبح طبيباً، لكن ذلك كان صعب المنال. لقد فشل في كل الفصول، وكان عاجزاً عن متابعة أيّاً من الموضوعات المدرسية، فشرع بغربة خانقة أينما التفت في ذلك المكان. وبعد خمسة شهور من الفشل المتواصل انسحب عائداً إلى البيت. لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا سيفعله.

جاءه المدد على يدي أحد أعمامه الذي اقترح أن يسافر غاندي إلى لندن لدراسة الحقوق. وكانت الدراسة تستغرق ثلاثة سنوات لا غير يتخرج بعدها محامٍ وتكون شهادة لندن مدخلاً مؤكداً للنجاح في الهند البريطانية. ونظراً للضيق المادي الشديد الذي تمر به العائلة، وافقت والدته على مضض. وقد فاقت التكاليف كل التوقعات، مما توجب على كاستورباي بيع حليها لشراء تذكرة السفر لزوجها، في حين وعده شقيقه الأكبر بدفع بقية التكاليف.

لم يسبق أن سافر غاندي، باستثناء الرحلات المعودة التي قام بها في عربة يجرها ثور إلى بلدات لا تبعد سوى أميال عن بلدته. ومثل أي شاب في الثامنة عشر من عمره، كان يتوقع الرحلة البحرية إلى إنكلترا حافلة بالإثارة والمغامرة. لكنه، بدلاً من ذلك، وجدها مسكونة بالوحدة. فبسبب خجله وتحفظه، وخشيته من أن يبدو غيبياً بلغته الإنكليزية المدرسية، اعتكف على سطح السفينة مُتلبّثاً لساعات يتأمل مياه البحر. وفي الفترات المحددة

للوجبات، كان يبقى في قمرته يقات على الحلوى التي حملته إياها والدته. وكان قد انتقى حلة بيضاء من الفانيليا لكي يرتديها عندما ينزل إلى البر، لكن ما أحزنه هو أن يجد نفسه الرجل الوحيد في لندن الذي يلبس الأبيض. كانت الأشهر الأولى في إنكلترا كابوساً بالنسبة إليه. كل شيء حوله كان مختلفاً؛ كل ما كان يقوله أو يفعله لا ينتمي إلى ذلك المكان. السلوك، الملابس، أسلوب التعبير، معنى الإيماءات العابرة. كل هذا كان يتوجب عليه تعلمه، وغالباً من خلال الأخطاء والتعرض للسخرية. لم يستطع التخلص من حنينه إلى الوطن. لم يكن يتحمل البقاء وحيداً.

"كنت أفكر باستمرار ببيتي وبلدي. كانت محبة والدتي تلازمني على الدوام. وفي الليل، تنساب الدموع على وجنتي، وذكريات الديار، صغيرها وكبيرها، تجعل النوم يجافيني. كان يستحيل علي البوح لأيّ كان بما أعانيه من بؤس. وحتى لو استطعت، ما الفائدة؟ لم أجد ما يخفف عني. كل شيء كان غريباً...".

مرت أسابيع، وكان غاندي خلالها على وشك ركوب أول سفينة عائداً إلى الوطن. لكن كبرياه لم تكن تسمح له بذلك. شيء ما عميق في داخله كان يجعله مصمماً على البقاء.

وأخيراً أشفق عليه أحد معارفه من الهنود ممن خبروا سبل الحياة في لندن، فأثبه قائلاً: "أنت لست هنا لكي تتعلم القانون. أنت هنا لكي تتعلم نمط الحياة الإنكليزية. ما الذي تفعله وأنت في حالة السبات في هذا الفندق؟". وجد غاندي وجهة النظر هذه مقبولة. لقد حكم الإنكليز بلاده لأكثر من قرنين من الزمن؛ وهم كانوا بالنسبة لكل هندي، مهما كان ولاؤه، رمزاً

للإنجازات البشرية العظيمة، حضارةً وقوةً مادية. حتى قدومه إلى إنكلترا كان اعترافاً ضمنياً منه بتفوقهم. فانصاع بخنوع لنصيحة صديقه واستأجر غرفة لدى عائلة إنكليزية.

كانت التجربة الأولى لغاندي في محاكاة نمط حياة أخرى. وكان لديه حافظاً شديداً لتجربة كل ما يروق له بنفسه. حينئذ، قرر أن يصبح جنتماناً إنكليزياً. تلقى تعليماً خاصاً في اللغة الفرنسية والمحادثة السليمة، واشترى حلةً غالية وقبعة حريرية. وتعلم كيف يعقد ربطة العنق، وكيف يتأنق أمام المرأة وهو يجاهد لترتيب شعره بفرشاة شعر إنكليزية. وحضر كذلك دروساً للترتيب على آلة الكمان وحاول تعلم رقصة الفوكستروت.

لكنه أحس أن دور الجنتمان لم يلبّ متطلّباته. فبصرف النظر عمّا حققه له ذلك من أمان، إلا أنه جعله أكثر وعياً بالذات، وأكثر إدراكاً بما قد يدور في خلد الآخرين عن كيفية مظهره وسلوكه. إضافة إلى ذلك، كان نمطاً من الحياة مكلفاً جداً، ونظراً لأن شقيقه كان يقدم له الدعم المالي، شعر بعدم الارتياح بشأن تبذير أمواله بهذا الشكل. فانتسعت الفجوة التي كان يستشعرها بين ذاته وذوات الآخرين لتصبح هوة.

بعد قرابة الثلاثة أشهر، استفاق غاندي على نحو مفاجئ من أحلام العظمة تلك. كيف يمكن لتغيير طريقة اللباس أن يجعله شخصاً مختلفاً عمّا كان للتو؟ فمن أجل تغيير حياته كان يتوجب عليه تغيير طريقته في التفكير، فذاك هو العامل الذي يضرب جذوراً أكثر عمقاً من أية اختلافات في العادات والثقافة. من الأفضل أن يكون المرء صادقاً مع نفسه بدلاً من محاولة التشبّه بالآخرين. كتب غاندي: "إذا جعلت مني مكونات الشخصية

جنتلماناً فذاك أفضل، وإلا فيجب أن أتخلى عن هذا الطموح". وبدأ يجرب طريقة حياة أبسط.

كانت الخطوة الأولى لغاندي هي العثور على شقة خاصة به. فتخلى عن كل دروس التجميل الاجتماعي، وباع آتته الموسيقية، وركّز ذهنه في دراسته. حينها، التقى مصادفة بطالب معوز كان يسكن في غرفة واحدة ويطبخ طعامه بنفسه، فقرر أن يحذو حذوه. اختار غرفة تقع في منطقة مركزية بحيث يُتاح له الذهاب مشياً على الأقدام حيثما يشاء دون الاضطرار إلى ركوب الحافلة. لم يشكل ذلك عائقاً يحدّ من حركة غاندي، فقد حوّل مسيره الطويل إلى فرصة يحافظ فيها على رشاقته وصلابة بنيته حتى في أجواء لندن الشتائية القاسية، ومن ثم غدت عادة لازمته طوال حياته. والأكثر أهمية، كان الاعتماد على الذات عنصراً مهماً في تلك التجارب افتقده غاندي لدى محاكاته للآخرين. لقد وجد نفسه أوفر صحة وأكثر سعادة أيضاً بذلك التغير.

عندئذ، بدأ يجرب نظاماً غذائياً خاصاً به.

كانت عائلة غاندي نباتية، وقد وعد والدته قبيل سفره ألا يذوق اللحم كما يفعل الإنكليز، رغم قناعته بأن تناول اللحم هو من أحد أسرار قوتهم. حاول أصدقاؤه من الطلاب الإنكليز والهنود على حد سواء إقناعه بأن اللحم ضروري للصحة الجيدة، لاسيما في طقس إنكلترا البارد. لكن غاندي، وعلى الرغم من خشيته أنهم على حق، كان مصمماً على ألا يخلف بوعده. ولشهور لم يجد في لندن ما يأكله سوى الخبز والسبانخ المسلوق. وأخيراً، وبدافع الجوع، بدأ يتقصى علمياً عن النظريات النباتية. وجد مجموعة من

النباتيين الإنكليز المتحمسين فقراً كتبهم حول الأنظمة الغذائية والصحة. بدت أفكارهم قابلة للأخذ والرد فقرّر أن يختبرها. جرّب كل أنواع التوليفات النباتية لمعرفة أيها تتناسبه، وبدأ يتخلّى عمّا هو ضار منها وإن كان طيب المذاق. وتدرجياً، بعد أن حرم نفسه من توابل الطبخ الهندي الحريفة، بدأ يتذوق الطعام بذاته، وأدرك أنه كان قبلاً يستلذّ بالإضافات التي تحرف نكهة طبق الطعام فحسب. لقد اكتشف أن حاسة الذوق تكمن في العقل وليس في اللسان.

لكن غاندي لم يكن قد اهتدى بعد إلى وجهة حقيقية. فالتخرّج من كلية الحقوق ليس بالأمر الصعب؛ كل ما كان يتوجب عليه هو اجتياز بعض الامتحانات السهلة وحضور الحد الأدنى من العشاءات في الجمعية المهنية للمحامين في لندن. حاول أن يتعلم القانون بأية طريقة وإن لم يكن لها علاقة بالامتحانات، لكن لم يكن هناك ما يشجعه على ربط ما كان يقرأه بما يحيط به. وحاول الإسهام في إصلاح اجتماعي من خلال الجمعية النباتية في لندن، لكنه أُحبط في محاولته، إذ أن افتقاده إلى البراعة كان عائقاً أمامه. لم يكن بمستطاعه التعبير عن أبسط الآراء حتى في حضرة لجنة عطوفة. كان يبدو أحرقاً ومعقود اللسان في المواقف الاجتماعية. لقد قرأ باجتهاد كل الكتب القانونية المطلوبة، لكن الشكوك والمخاوف بشأن مقدرته على المرافعة في المحكمة كانت تنهشه باستمرار.

بعد ثلاثة سنوات قضاها غاندي في لندن، اجتاز امتحاناته ورُسم محامياً وعيّن في المحكمة العليا. وفي اليوم التالي مباشرة أبحر عائداً إلى الوطن. كانت الأخبار عن مرض والدته قد أحرزته كثيراً، وكان توّاقاً لمغادرة لندن

والعودة إلى الوطن، لكن مواطن ضعفه كانت تتغلب عليه. كانت تساوره كل الظنون المحتملة فيوجس خيفة من المستقبل.

لقد ثبت تماماً أن لمخاوفه ما يبررها. فقد وصل إلى ميناء بومباي وسط عاصفة استوائية صيفية هوجاء. كانت الرياح تعصف والأمطار تنهمر بغزارة وكأنها تماثل ما كان يعتمل في داخله من شكوك، كما كتب فيما بعد. كان شقيقه الأكبر ينتظره على رصيف الميناء؛ لقد توفيت والدتهما قبل أن يتمكن من العودة، ونظراً لمعرفة العائلة بمقدار حبه لوالدته، أحجموا عن إخباره.

دفن غاندي حزنه وحاول أن يولي وجهه صوب ما يَعد به مستقبله في مجال المحاماة. لكنه في راجكوت Rajkot، البلدة التي أكمل فيها تعليمه الثانوي، لم يكن سوى شخص فاشل. لم يكن يعرف كيف يطبق المبادئ القانونية على الحالات المحددة، وتعليمه الإنكليزي المدرسي لم يقدم له أدنى معرفة بالقانون الهندي. ولذا لا أحد سيفكر في توكيله عن قضية.

لم يكن في بومباي أوفر حظاً. بدأ زملاؤه يشيرون إليه بسخرية على أنه "محامٍ بلا موكلين". ومع فائض الوقت لديه، كان يذهب إلى المحكمة العليا كل يوم بغية اكتساب الخبرة. لكن المناقشات كانت تمضي على نحو رتيب ومضجر؛ كانت لدى غاندي مشكلة في متابعة القضايا، وكثيراً ما كان يغلبه النعاس قبل الانتهاء منها. القضية الأولى والوحيدة التي استلمها في بومباي كانت دعوى روتينية بأجر قدره عشرة دولارات. وقف غاندي وركبته تترجفان ليؤدي امتحانه الحاسم، لكنه اكتشف على نحو قاطع أنه لا يستطيع التلظظ بكلمة واحد. ووسط ضحكات زملائه، انتهى به الأمر إلى تسليم القضية إلى من هو أكثر خبرة ولاذ هارباً من القاعة.

عند هذا الحد، اتخذت حياة غاندي واحدة من تلك المنعطفات المثمرة على نحو غامض التي يحب أن ينسبها بعض المراقبين إلى "القسمة" أو "النصيب". أما غاندي، وبالتفاته إلى حياته من موقع معاينة عقود من التطور الداخلي، فقد دعاها فعل نعمة، تجلّ للأحداث وفقاً لضرورة داخلية عميقة لم يكن هو ذاته مدركاً لها. وفي غمرة فشله الذريع، واستحالة اللجوء إلى أحد طلباً للمساعدة، كان مهياً للتحول الداخلي في رحلة طويلة لاكتشاف الذات. وقد وفر له الحظ خوض غمار هذا التحدي.

آنذاك، لم يبدُ أن ثمة فرصة تلوح في الأفق. لكن عن طريق شقيقه، عرضت شركة إسلامية محلية المساعدة على غاندي بعقد سنوي مع مكتبها في جنوب أفريقيا. كانت وظيفة مكتبية متواضعة، براتب ومركز أدنى بكثير مما يستحقهما مؤهله التعليمي الإنكليزي. وكان هذا يعني مزيداً من الفراق عن كاستورباي التي كانت قد أنجبت للتو ابنهما الثاني. لكن غاندي سارع إلى التقاط الفرصة. كان على الأقل عملاً يكسبه بعض الخبرة وقد يجعله يدير ظهره لحظه السيء إلى الأبد.

لكن الوضع الذي كان ينتظره بدا في غاية الاختلاف عما كان قد توقعه. لقد أساء مكتب دادا عبد الله الهندي فهم احتياجات مكتب جنوب أفريقيا. فالقضية التي استدعي غاندي من أجلها كانت قضية شائكة تتطلب مهارة دقيقة في المحاسبة من أجل حلّ ألغاز سنين من الصفقات التجارية المعقدة من دون أن تتوفر سجلات كافية. كان عمل غاندي يقتضي تقديم المشورة إلى مستشار الشركة القانوني، لكنه كان جاهلاً بمسك الدفاتر التجارية أكثر من جهله بالقانون. يضاف إلى ذلك، وبصرف النظر عما كان يأمل في

اكتسابه من احترام من عمله الجديد، وجد نفسه في بلاد كان لون بشرته لوحده كافياً لتعريضه إلى ازدراء يومي، إن لم يكن إلى إيذاء جسدي حتى. لقد بدا وكأنه قد حزم جُلّ مشاكله في حقيبته عند السفر.

كان غاندي مراقباً ثاقب النظر لسلوكه الخاص على الدوام. فأينما ولى وجهه، في كل مرة يلوذ فيها هارباً من حالة فشل، كان يبدو دوماً وكأن الوضع نفسه يتكرر بدرجات أكثر تهديداً. هذه المرة، ربما كان سيتلقى أجراً هزياً من مكاتب دادا عبد الله لقاء عمل متواضع لمدة اثني عشر شهراً ومن ثم يعود إلى دياره، وهو فشل ليس أقل مما صادفه من ذي قبل. لذا، بدلاً من الهروب، عقد العزم على محاولة القيام بخطوة مختلفة. إذا كان تغيير المحيط لا يجري على ما يرام، لمَ لا يحاول تغيير نفسه؟ لم يكن أمراً ناجماً عن إمعان في التفكير، وإنما عن شعور عميق جداً بأنه أمر ملح. فقبل التحدي وألقى بنفسه في لجة العمل.

وعلى الفور بدأ الانضباط الذاتي الذي كان قد تعلمه غاندي في لندن يُؤتي أكله. درس كل ما يتعلق بمسك الدفاتر التجارية بنفسه ووجد أن فطنته مكافئة لحاجته مما عزز ثقته بنفسه. وفي حالة من الانتشاء، استتفر كل ملكة التركيز الذهني لديه لاستكشاف أدق تفاصيل القضية والعثور على الحقيقة. واكتسب معرفة عميقة بالوضع المحيط بالقضية أكثر من أي كان من الطرف الآخر.

كانت الحقائق تدعم موقف موكله بقوة. لكن المعركة القانونية قد تطول شهوراً، ولن يكون أياً من الخصمين في وضع يؤهله لأن يكسب شيئاً ماعدا المحامين. لم يكن غاندي يولي أي اعتبار للمنفعة الشخصية من الدعاوى

القضائية والجدالات العقيمة. كان عازماً على تقديم الخدمة لما فيه مصلحة كلا الطرفين. كانت تربط دادا عبد الله وخصمه رابطة دم، وكل يوم يمر على القضية كان يدقّ الإسفين أعرق بينهما مما يعني انشطار العائلة إلى فريقين متناحرين. وعبر مفاوضات مضمّنية استطاع غاندي إقناع الطرفين بإحالة القضية إلى التحكيم وتسوية النزاع خارج أبواب المحكمة. لكن الأمر تطلب مزيداً من المباحثات لكي يوافق دادا عبد الله على شرط أن لا يتسبب ذلك في إفلاس الخاسر، ونال الاتفاق رضا الطرفين في نهاية المطاف. غمرت النشوة غاندي فصاح مبتهجاً: "لقد تعلمت الممارسة الحقّة للقانون. وتعلمت اكتشاف الجانب الأفضل في الطبيعة البشرية والدخول إلى قلوب الناس. أدركت أن وظيفة المحامي الحقيقية هي توحيد الأطراف المتنافرة".

لقد اكتشف غاندي، وبدون إدراك منه، سرّ النجاح. وبدأ النظر إلى كل مشكلة عسيرة على أنها فرصة للخدمة العامة وتحديّ قد يستجرّ منه الكثير والكثير من مصادر الفهم والخيال. وبإدارته ظهره للكسب الشخصي أو الحظوة الشخصية في عمله، وجد أنه قد كسب ثقة البيض والهنود في جنوب أفريقيا على حد سواء، بل ومحبتهم أيضاً. وبدأ يتهافت عليه الكثير من الناس من جاليتّه لكي يُؤكلوه قضاياهم القانونية، ويعتمدوا عليه كلما احتاجوا إلى المساعدة. وفي غضون بضع سنين، أصبح غاندي محامياً ناجحاً، يدخل يقارب الخمسة وعشرين أو الثلاثين ألف دولار سنوياً، ونمط معيشة على غرار النمط الغربي مما يلائم مركزه الاجتماعي.

ودفعه رضاه المؤقت عن وضعه للعودة إلى الهند لإحضار كاستورباي وولديهما إلى بلدهم الجديد. وقد عانت العائلة كثيراً في التكيف مع عذابات

ارتداء الملابس الأجنبية والسلوكيات المتصنّعة. في البداية، عارضوا بمرارة، لكن غاندي كان عنيداً. كان من الضروري أن يبدوا "متحضّرين" - وذلك يعني: أوروبيين. كان ذلك هو ثمن النجاح، وكان عليهم جميعاً دفعه. لم يكن بمقدور كاستورباي أن تمتعض كثيراً. ففي سن السابعة والعشرين، اعتلى زوجها قمة موجة الثروة، وبدا أن كل ما قد يرغبون فيه هو رهن إشارته. لقد بلغ مرحلة ينتهي فيها اختبار معظم الشباب.

بيد أن القمع السياسي والاجتماعي الذي كان يتعرض له الهنود في جنوب أفريقيا، وخصوصاً الظرف الباعث على اليأس لأولئك الذين جاؤوا بصفتهم عمالاً في نظام يعادل العبودية المُسرّعة، خَلَف تأثيراً عميقاً في نفس غاندي. أحد هؤلاء الرجال، وكان مستخدمه قد ضربه بوحشية، قدم إلى غاندي طلباً للمساعدة، وعن طريقه تعرف غاندي على آخرين كثر. زار بيوتهم وتعرف على عائلاتهم وكيف يعيشون. وبالتدرّج، بدأ يُغفل شؤونه الخاصة محاولاً إيجاد الوقت والموارد لتخفيف معاناة أولئك الناس. كانوا أخوته وأخواته؛ وكان يتماثل معهم أكثر فأكثر كل يوم. لقد غدت معاناتهم هي معاناته.

حينما تفشّى مرض الطاعون في الغيتو الهندي البائس في جوهانسبرغ، كان المرضى والمحتضرون يُنقلون إلى مبنى معزول خُصّص للحجر الصحي حيث تمضي ممرضة إنكليزية ساعات طوال بمفردها تعتني بهم. بعد عدة سنوات روت تلك الممرضة كيف جاء إلى المبنى رجل ناحل ذات مساء كان فيه الوباء في ذروته. صرخت محذرة: "أخرج! إنه الطاعون". لكن الرجل أجاب بهدوء: "حسناً. لقد حضرت لكي أساعدك".

تعرفت الممرضة عليه باعتباره زعيماً للجالية الهندية فدعته للدخول. اتجه مباشرة نحو المريض. وحالما رأته ينحني فوق الرجل المحتضر المغطى بالحشرات، قالت: "دعه؛ أنا اعتدتُ على الوضع". لكن غاندي بدأ بالاعتناء بالرجل بنفسه هامساً: "إنه أخي". وظل ساهراً طوال الليل إلى حين حضور الإسعاف.

"كنت أتقدّم على صعيد مهنتي بشكل مُرضٍ، لكن ذلك لم يحقق رضاي. لقد كانت تقلقني باستمرار مسألة جعل حياتي أكثر بساطة إلى حد أبعد والقيام بما هو صائب لإسداء خدمة لأخوتي في الإنسانية. فحين طرق أحد المصابين بالجذام باب منزلي، لم يطاوعني قلبي أن أصرفه بوجبة طعام. لذا، عرضت عليه ملجأ، وضمّدت تقيحات جسده، وأخذت أعنتني به...".

"كنت قد باشرت حياة رخيّة ومريحة، لكن التجربة لم تدم طويلاً. فرغم أنني كنت قد جهزت المنزل بأثاث كامل، إلا أنه لم يفلح في توفير حصن آمن لي. لذا، لم ألبث أن انطلقت صوب حياة أخرى، وبدأت أقتصد في نفقاتي. كانت فاتورة المصبغة باهظة جداً، ونظراً لقربها من منزلي وعدم التزام صاحبها بمواعيد منتظمة، تبيّن لي أن عشرين أو ثلاثين قميصاً وياقة لم تكن تكفيّني. كان عليّ تبديل الياقات يومياً، والقمصان كل يومين على الأقل، إن لم يكن يومياً، مما يعني مصروفاً مضاعفاً بدا لي أنه غير ضروري. لذا، اشتريت ما يلزم من عدّة لغسيل الثياب وكيّها بغية التوفير. كما اشتريت كتاباً لتعليم فن تنظيف الثياب ودرسته وعلمته لزوجتي أيضاً. ما من شك بأن هذا الجهد زاد من أعبائي، لكن جدّته أضفت عليه نوعاً من المتعة.

لن أنسى أبداً أول ياقة نظّفتها بنفسي. فقد وضعت قدراً من النشاء أكبر مما هو مطلوب لكيها، ولم تكن المكواة قد سخنت بشكل كاف، ولم أضغط عليها خشية أن تحترق الياقة. وكانت النتيجة، وكانت الياقة تقست بعض الشيء، أن النشاء الفائض أخذ بالتساقط. ذهبت إلى المحكمة واضعاً الياقة مما أثار سخرية زملائي المحامين، لكنني لم أكن أتأثر بالسخرية حتى في تلك الأيام...

وبالطريقة نفسها، وكما حرّرت نفسي من عبودية صاحب المصبغة، استغنيت عن الاعتماد على الحلاق. جميع الذين ذهبوا إلى إنكلترا تعلموا هناك فن حلاقة الذقن على الأقل، لكن لا أحد، على حد علمي، تعلم قص شعره بنفسه. وكان علي أن أتعلم ذلك أيضاً. وانتتني الفرصة عندما ذهبت ذات مرة إلى صالون حلاقة يملكه رجل إنكليزي في بريتوريا، فعاملني بازدراء ورفض أن يقص شعري. من المؤكد أن هذا الموقف سبّب لي أذى، لكنني على الفور اشتريت عدّة لقص الشعر وقصصت شعري أمام المرأة. نجحت إلى حد ما في قص شعري من الأمام لكنني أفسدته من الخلف، فكنت موضع تنذّر أصدقائي في المحكمة: "ماذا حصل لشعرك يا غاندي؟ هل قضمته الجرذان؟"

قلت: "لا. الحلاق الأبيض لم يتنازل ويلمس شعري الأسود، لذا أثرت أن أقصه بنفسي.. لا يهم ما لحق به من سوء".

استحوذ مثال الخدمة الغيرية على غاندي مما أحدث تغيرات متسارعة في كل مظهر من مظاهر حياته. العائدات المالية لمهنة المحاماة، النمط الأوروبي في العيش، الأعمال المنزلية المعقدة... كل هذه الأمور تضاعلت

حينما أصبحت عوائق أمام طريقه في الخدمة الاجتماعية. كل تبسيط حرّر لديه مصادر جديدة من الوقت والطاقة والمقدرة. وغالباً، في بداية ذلك المشوار على الأخص، كان من المؤلم التخلي عن الوقت أو المتعة من أجل حاجات الآخرين. لكن الحرية التي تلي ذلك كانت تغمر غاندي بنشوة لا حدود لها. وبدأ يتلمس حيثما كان إمكانية للاختيار بين أن يعيش لذاته وحدها أو أن يعيش من أجل الآخرين. ووسط انشغاله بممارسة قانونية نشطة، خصّص وقتاً لخدمة التمريض التطوعي، وياشر العمل في صحيفة إخبارية أسبوعية تدعى "الرأي الهندي" Indian Opinion، وجنّد فيلق إسعاف هندي للخدمة مع الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب في مستعمرات البوير Boer War عام 1899. كان ذلك مثلاً تفشّى بالعدوى، إذ بدأ يتشكل حول غاندي مجتمعاً عائلياً صغيراً أو أشْرَم Ashram في ريف ديربان Durban حيث قدم حفنة من الشباب والشابات المتفانين، أوروبيين وهنوداً على حد سواء، لكي يقيموا معه ويشاركوه تجربته في فن العيش. وكلما كان حب الذات يتضاءل، كان إدراكه الروحي يتزايد. وعكف على دراسة الكتب المقدسة لكل الديانات واختبار تعاليمها بالمقابلة مع تجربته الخاصة.

"لا تقلق حيال نفسك إطلاقاً، دع الأمر كله لله... يبدو أن هذه هي وصية الديانات كافة. وهذا لا يدعو للتوجّس. فمن ينذر نفسه لخدمة الغير بضمير صافٍ، سيدرك يوماً بعد يوم ضرورة هذه الخدمة على صعيد أكبر، وسوف يملأ الإيمان قلبه باستمرار. قد يكون من العسير على المرء الخطو في طريق الخدمة ما لم يكن مهياً للتخلي عن المصلحة الذاتية، ولإدراك شروط منشئه. وكل منا، بوعي أو بدونه، يُسدي خدمة ما هنا أو هناك. فإذا

رعينا بتأنٍ عادة تقديم هذه الخدمة الطوعية، سوف تتنامى رغبتنا في ذلك إلى حد كبير وعلى نحو ثابت، ولن يحقق هذا سعادة لنا فقط، بل للعالم أجمع".

"من يقدم خدمة لن يُشغل ذهنه في سبل راحته الخاصة التي يترك أمر العناية بها، أو تجاهلها، للمولى الأعلى. ومن ثم لن يُثقل على نفسه بكل ما يعترض سبيله، سيأخذ فقط ما يحتاج إليه بدقة ويترك الباقي. سيكون هادئاً، متحرراً من الغضب وهائئ البال حتى وإن خالجه شعور بالضيق. فالخدمة التي يقدمها، حالها كحال الفضيلة، هي المكافأة التي يتلقاها، وسيكون قانعاً بها".

"على المرء ألا يتملّك ما لا يحتاجه حقاً. وسيكون خرقاً لهذا المبدأ تملّك المرء لمواد غذائية أو ملابس أو أثاث لا ضرورة لها. مثلاً، عليه ألا يحتفظ بكرسي مادام بوسعه الاستغناء عنه. التقيّد بهذا المبدأ سيرشد المرء إلى تبسيط تصاعدي لحياته الخاصة".

لم يعد يُشاهد غاندي مرتدياً ثياباً أوروبية فاخرة. وبدأ يميل إلى تبسيط كل تفصيل في أعماله المنزلية. أما كاستورباي، التي أتقنت استعمال السكين والشوكة في الأكل وتخلت عن الأعمال المنزلية لزوجها المولع بالأساليب الغربية، فكان عليها طرح كل هذه الأمور جانباً والعودة إلى نمطها الأصلي في العيش. وانسجماً مع إيمانه الذي لا يتزعزع بالمساواة الاجتماعية وكرامة العمل المجهد، جعلها تتولى العناية بمراحيض المنزل بنفسها، وهو العمل الذي كان دوماً من اختصاص أشخاص من الطبقات الدنيا في المجتمع

الهندي. فأذعنت كاستورباي بدافع حبها لزوجها، لكن مع شعور بالمرارة. وقال غاندي فيما بعد أن تحملها كان منقطع النظر.

لكن حياة العائلة كانت ما تزال بعيدة عن السلاسة. فذات مرة، أغدق الهنود في ناتال Natal على غاندي بالهدايا تعبيراً عن تقديرهم لما كان يسديه من خدمات، لكن ما فعلوه جعل غاندي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً طوال الليل. كان قد علم زوجته وولديه أن الخدمة الغيرية هي مكافأة بحد ذاتها. كيف يستطيع الآن قبول هدايا قُدمت له مقابل خدمات أداها لجاليته، وهو عمل كان يقوم به بدون طمع في مكسب شخصي؟ كانت الهدايا ثمينة، من الذهب والفضة، إضافة إلى قلادة من الألماس لزوجته. ربما كان من الصعب التفریط فيها، لكن الأصعب هو الاحتفاظ بها. ومع بزوغ الفجر، جلس غاندي يخطّ رسالة يعلن فيها تحويل الهدايا إلى وديعة مصرفية لاستخدامها من أجل خدمة الجالية.

لكن، كيف له أن يقنع كاستورباي بالتخلي عن الحلي؟ كانت عنيدة؛ فتلك الهدايا هي أول تعويض من هذا النوع يتلقونه مقابل سنوات طوال من العمل الغيري تحملت كاستورباي مصاعبه صابرة كما فعل هو على الأقل. توسلت إليه كاستورباي طويلاً وبمرارة، ثم انهارت بالبكاء. وفي نهاية المطاف، وافقت على طلبه، منهكة أكثر مما هي مقتنعة. كتب غاندي: "لم أندم مطلقاً على اتخاذ هذا القرار، ومع مرور السنين تمكنت زوجتي أيضاً من إدراك مدى حكمته. لقد وقانا ذلك من الكثير من الإغراءات".

"ليس بوسع المرء ذاته فعل ما هو صائب في مجال من مجالات الحياة في حين أنه منهمك بفعل ما هو خاطئ في مجال آخر. فالحياة واحدة، كل لا يتجزأ".

كانت الصراعات المحلية في جنوب أفريقيا هي الأرضية التجريبية التي تعلم فيها غاندي فن المطالبة بالعيش من أجل الآخرين بدلاً من نفسه. وسوف يطبق، في ما بعد، الدروس ذاتها على صعيد عالمي، ففي النهاية أصبح العالم برمته عائلته.

بعد سنوات عدة، وكان قد غادر جنوب أفريقيا منذ مدة طويلة، تلقى غاندي رسالة تحثّ زعماء العالم على صياغة شريعة لحقوق الإنسان. كتب غاندي لاحقاً: "نظراً إلى ما تعلمته من تجربتي، أجد من بالغ الأهمية سنّ ميثاق للواجبات الإنسانية".

كانت تلك مقاربة تعلمها من كاستورباي. فلدى عودته من لندن بعد سنوات قضاها هناك للدراسة، مُشبعاً بالثقافة وواعياً تماماً لـ "حقوقه الشرعية"، كما يوضح غاندي بنفسه، كان الشخص الأول الذي حاول أن يؤثر فيه باتجاه تقبل هذا الوضع هو زوجته. غير أن كاستورباي كانت امرأة ذات إرادة خاصة بها. بدأ غاندي بالمطالبة بحقوقه ما إن وطأت قدماه عتبة البيت بعد عودته؛ وكان من الطبيعي أن تبادر كاستورباي إلى فعل الشيء نفسه - في الوقت ذاته وفي ذات البيت. وعلى الغالب، أصبحت مشاحناتهما تشتدّ إلى حد أنها كانت توصل كاستورباي إلى حالة بكاء، مما كان يثير غيظ غاندي أكثر. فذات مرة، وفي موجة عارمة من الغضب، صرخ في وجهها: "لن أتحمل هذا الهراء في منزلي".

ردت كاستورباي: "إذن، احتفظ بمنزلك لنفسك ودعني أرحل".
فما كان من غاندي إلا أن أمسك بذراعها بغضب وجرّها نحو بوابة
المنزل وهي تنتحب.

صاحت والدموع تنهمر من عينيها: "أليس لديك شعور بالخجل؟ أين
يمكنني الذهاب؟ لا أعرف عائلة هنا تأويني. هل تعتقد، لأنني زوجتك، أن
علي أن اصبر على إساءاتك؟ بحق السماء، كن مهذباً وأغلق البوابة. لا تدع
الناس يتفرجون علينا في مثل هذا المنظر!".

غاندي نفسه من روى هذه الحادثة. يقول أنه، في ذلك الوقت، كان يعتقد
أن من حقه كزوج أن يفرض آراءه على زوجته. لكن مع مضي السنين
واستمرار العواصف بينهما، بدأ غاندي يدرك مدى المعاناة التي كان يسببها
لزوجته بسبب تلك النظرة المتمزّمة. وأخيراً حدث له ما هو أكثر من ممارسة
لـ "حقوقه"؛ لقد استطاع إنجاز مسؤولياته. فبالنسبة لغاندي: لكي تعرف عليك
أن تشعر، ولكي تشعر عليك أن تعمل، ولكي تعمل عليك أن تعيش. وعلى
الفور، وعضاً عن إجبار كاستورباي على طاعة معتقداته وقيمه المتجلية
حديثاً، بدأ في محاولة كسبها عن طريق جعل نفسه قدوة يُحتذى بها. كانت
مساراً طويلاً وموجعاً، وغالباً ما كان على غاندي تجاهل ما يعزّ عليه، حباً
أو نفوراً، لكي يرى الأمور من وجهة نظر زوجته أكثر مما هي من وجهة
نظره. لكن، وبالتدرّج، بدأ يدرك أن ليس ثمة من خلاف بينهما ماعدا ما
كان يفرضه عليها، وأن كاستورباي كانت تحاول دوماً أن تكسبه بالمحبة.
فمن الاكتشافات الأكثر جذرية التي كان عليه أن يُدرجها في صلب تجربته
في الحياة: لكي تحوّل الآخرين، عليك أولاً أن تحوّل نفسك.

كانت تجارب غاندي تقوده إلى مناطق غير مُبهرجة بالمظهر الخارجي للمعيشة، حيث القيم المألوفة للبيع والشراء، والوجاهة والمتعة، لا تحمل أي معنى على الإطلاق. لقد سبقه كثير من رجالات الفكر إلى تسطير مجلدات حول الحقيقة والسعادة، بيد أن قلة منهم استطاعت تغيير حياتها. لم يكن غاندي يُلقى بالاً لمثل هذه المبادئ المجردة. كان يريد معرفة كيفية العيش، مع استعداد لقلب شخصيته رأساً على عقب، إن دعت الضرورة، للاقتراب أكثر من ذلك الهدف. كان ينعم النظر في حيوات وأعمال رجال من شتى الجنسيات والمعتقدات، بحثاً عن دليل هادٍ، وعندما عثر عليه أخيراً، كان في صلب المنقول الروحي لبلاده؛ منقول لم يصبه الوهن لأكثر من خمسة آلاف سنة.

كانت البهَغَفاد غيتا Bhagavad Gita قرينه على الدوام عندما كان طفلاً. وللمفارقة، لم يُلق نظرة على ما تتضمنه من تطبيقات عملية إلى حين وجوده في إنكلترا، فمع أصدقاء إنكليز، قرأ ترجمة إنكليزية للبهَغَفاد غيتا. كانت المرة الأولى التي يقرأها، فغزت كلماتها قلبه. وفي جنوب أفريقيا، بدأت تلك الكلمات تتخلل أفعاله أيضاً. فهناك أصبحت الغيتا Gita ما كان يدعوه "المرجع الروحي" بالنسبة إليه، المرشد العملي وسط الأخطار والتحديات التي كان يواجهها وهو يتعمق في بحثه عن الحقيقة.

"ما خلّفته قراءة الغيتا من أثر في نفوس أصدقائي، يمكنهم هم فقط التعبير عنه؛ أما بالنسبة لي فقد أصبحت الغيتا مرشد سلوك منزه عن الخطأ. فمثلما كنت أقلب صفحات القاموس الإنكليزي للبحث عن معاني الكلمات التي لم أكن أفهمها، كنت أُلجأ إلى قاموس السلوك هذا من أجل حل جاهز

لكل ما يعترضني من مشاقِّ ومحن. كانت تبهرني كلمات مثل aparigradha (عدم التملك) و samabhava (مساواة). لكن، كيفية تنمية تلك المساواة وصونها كان هو السؤال. كيف يمكن للمرء التعامل بالطريقة نفسها مع الموظفين الرسميين المحقِّرين للناس والمتعجرفين والفاستدين، وزملاء الأمس المتبويئين مناصب فارغة، والناس الذين طالما كانوا صالحين وأخبار؟ كيف يمكن للمرء تجريد نفسه من كل الممتلكات؟... أينبغي عليّ التخلّي عن كل ما أملك واتباع(ه)؟ كان يأتيني الجواب على الفور: ليس بوسعي اتباع(ه) ما لم أتخلّ عن كل ما أملك.

لقد ساعدتني دراستي للقانون الإنكليزي... أدركتُ أن تعاليم الغيتا بشأن عدم التملك تعني أنه ينبغي على من يتوق إلى الخلاص أن يتصرف كالوصي الذي، رغم تحكمه بممتلكات كبيرة، يعتبر أنه لا يملك مقدار ذرة منها خاصة به".

تقدم الغيتا تعليمات مفصّلة لعبور بحر الحياة. ففي ساحة النزال، حيث تمثّل المنظومة السردية قلب الإنسان المفرد، تتصارع على نحو متواصل قوى النور والظلمة، قوى المحبة والفُرقة، من أجل السيطرة على تفكيرنا وأعمالنا. وفي إحدى المحاورات، يلتمس أرجونا Arjuna، الأمير المحارب الذي يمثّل كل رجل أو امرأة، تعلّم فن العيش من سري كريشنا Sri Krishna، ربّ المحبة الذي هو التجلّي الظاهري لذات أرجونا العميقة. أرجونا رجل عمل، لا تهّمه الماورائيات ولا النظريات الوهمية؛ إنه يرغب في معرفة كيف يجعل كل لحظة من حياته مُعتبرة، ومحررة تماماً من القلق والخوف. أسئلة أرجونا هي استقصاءات عملية عن مشكلات العيش؛ وأجوبة سري كريشنا بسيطة وفي

صلب الموضوع. يقول سري كريشنا لأرجونا إن الإنسان يُولد لكي يقاتل؛ ما من خيار في المسألة. كل رغبة تعتمل في نفسه لا بد لها من أن تحمله على القتال. بوسعه تحويل غضبه ضد الآخرين، أو تحويله ضد ما هو أناني وحنق في داخله. بإمكانه استعمال يديه لضرب الآخرين أو لتكفيف دموعهم. إنها دعوة للعمل. ولهذا السبب لا يصف سري كريشنا أبطال وبطلات "درب محبة" الغيتا بلغة عاطفية وإنما بلغة حربية.

ذاك الذي أحبه،

هو من لا يضمّر سوء نية قط، ويقابل الكراهية بمحبة.

يعيش بعيداً عن الأنا والتملك، والألم واللذة،

مفعم بالرحمة،

قانع، منضبط ذاتياً، وذو عزم راسخ،

مخلص لي من كل قلبه وعقله.

مثل هذا الإنسان أحبه.

لا يُغضب العالم ولا يغضب منه،

متسامٍ على تأثير التفاخر والمنافسة والخوف،

قابل للحياة كما تأتي، بخيرها وشرها.

طاهر وكفوٍ ومتحرر من التعلّق،

وعلى أهبة الاستعداد لتلبية كل طلب لي،

كأداة متواضعة من أدوات عملي...

يخدم الصديق والعدو بنفس القدر من المحبة،

لا يغرّه المديح، ولا ينفره اللوم،

في الحر كما في البرد، في اللذة والألم،
متحرر من التعلقات الأنانية والعناد،
كامل في كل وقت، ومتناغم في كل مكان،
راسخ في إيمانه،
مثل هذا الإنسان عزيز علي.

في جنوب أفريقيا بالذات تعلّم غاندي ترجمة هذه المثل الرائعة إلى عمل مؤثر. واستلهاماً من الاستجابة إلى جهوده في مجال التمريض خلال حرب البوير، عمل على تطويع فيلق إسعاف هندي ثانٍ لمساعدة حكومة ناتال على قمع "تمرد" قام به السكان المحليون من الزولو Zulu. غير أنه اكتشف، آنئذ، أنه لا مجد في الميدان. لقد تحول "التمرد" إلى مجرد مبرر لقنص البشر مما فتح عيني غاندي على أهوال الحرب. كان يستيقظ كل صباح على صوت أزيز الرصاص حيث كانت القوات البريطانية تدكّ وتدمر قرية أخرى للزولو، فكان ينبغي عليه أن يسير مع متطوعيه أحياناً قرابة الأربعين كيلومتراً يومياً وهم يحملون أجساد المواطنين الأبرياء الذين أساء الجنود البريطانيون الحاقدهم معاملتهم بلا شفقة. لم تكن تدعه يرتاح تلك الحماسة التي تسببت في معاناة أولئك الناس. كان يحمل مع المتطوعين، ليلاً نهاراً، النقالات عبر هضاب ناتال القاحلة الشاسعة، ويستغرق عميقاً في صلاة وتفحص ذاتي في سعي محموم من أجل قوة أكبر لما كان يقوم به.

لقد قاده تشوّقه العارم إلى منبع القوة ذاته. فمن خلال تأمل عميق في الذات أخذ غاندي يدرك كم هو مقدار الطاقة الحيوية المحتجزة في الدافع الجنسي. وبفيض من التبصر أدرك أن الجنس ليس مجرد غريزة جسدية، بل

تعبير عن القوة الروحية الهائلة القابعة خلف كل المحبة والخلق التي تسميها المخطوطات الهندوسية المقدسة "كونداليني" Kundalini، قوة الحياة الدافعة إلى التطور. فطوال حياته كانت تستعبده تلك الغريزة، مُطوّحة به في هذا الطريق أو ذاك، خارج سيطرته. لكن في الصمت المخيم على هضاب ناتال، وبكل رغبته الحارقة في خدمة ورعاية الجرحى والمحتضرين، وجد غاندي القوة لكي يستأصل تلك السلطة المتحكمة فيه من أصلها. إذ ذاك عقد العزم على أن يكون سيدها، وألا يدعها مطلقاً تُملي عليه أوامرها مجدداً. كان قراراً بدّد توتراته الأكثر عمقاً، وحرّر كل طاقة المحبة الكامنة في داخله، متحكماً فيها بوعي. لقد بدأ في تحويل ما تبقى من أهوائه إلى قوة روحية.

درب المحبة

لم يُنه غاندي عامه الأول في جنوب أفريقيا حين التمعت في ذهنه فكرة اتخاذ القرار. كان عمله لصالح دادا عبد الله يتطلب منه السفر متقللاً في أنحاء ولاية ناتال الداخلية بواسطة القطار أو المركبات. كان المستوطنون الأوروبيون يسافرون على الدوام في عربات الدرجة الأولى، في حين يُفترض بالهنود أن يسافروا في عربات الدرجة الثالثة. لكن دادا عبد الله كان قد حجز لغاندي مقعداً في الدرجة الأولى في القطار. فاستقر غاندي في المقصورة متنعمًا بالراحة وحيداً إلى حين الوصول إلى بلدة ماريتزبرغ Maritzburg الجبلية في المساء. ومن هناك استقل أحد المسافرين القطار، وهو أوروبي، ودخل المقصورة التي فيها غاندي. ألقى مجرد نظرة على الرجل ذي البشرة الداكنة الجالس في المقصورة وغادرها. لكنه ما لبث أن عاد بصحبة موظفي القطار وقال أحدهم لغاندي بلهجة حادة: "عليك مغادرة هذا المكان. اذهب إلى عربة الدرجة الثالثة".

اعترض غاندي قائلاً: "لكن لدي بطاقة مخصصة لهذه المقصورة". قال الموظف: "ذلك لا يهم. عليك المغادرة وإلا سأحضر رجال الشرطة لكي يلقوا بك خارجاً". رد غاندي برباطة جأش: "ربما تستطيع ذلك. لكن لدي كل الحق في البقاء هنا، وأرفض الخروج بمحض إرادتي".

حضر رجال الشرطة وأخرجوا غاندي من القطار وتُرك ليضي الليلة جالساً في عتمة محطة القطار المُقفرة في ماريتزبرغ. لم يسمح له الموظفون أخذ معطفه ولا أمتعته. كان البرد قارصاً. جلس هناك وحيداً مرتعشاً، متميزاً

غيبطاً، جاهداً في فهم كيف يجد أحد ما متعة أو رضا في تسبب المعاناة للآخرين. لم يكن ما تعرض له من إذلال وحيث شخصياً هو ما أثار حنقه؛ بل هو المرض العضال المتمثل في همجية الإنسان ضد الإنسان، اضطهاد كل الأعراق بسبب الاختلاف في لون البشرة أو المعتقد.

مع حلول الصباح، كان قد اتخذ قراراً بأن العودة إلى الهند سيكون عملاً جباناً. لذا، كان يتوجب عليه البقاء، فلا مجال للنكوص، ولا بد من الإقدام على العمل. فالرجل الذي لم يكن قادراً على التحدث في المحكمة بما يعزز من وضعه المهني سيدجد في داخله ما يكفي من قدرات للحديث والكتابة والتنظيم بشكل فعال للتفريغ عن المكروبين.

بعد سنوات، عندما سئل عن الحدث الأكثر تأثيراً في مسار حياته، روى غاندي قصة تلك الليلة في محطة ماريتزبرغ. لقد كان عليه أن يكابد الكثير من المحن، وأن يعاني من سوء المعاملة والإهانات والأذى الجسدي حتى، لكن في تلك الليلة الطويلة في جبال ناتال اتخذ قراراً بعدم الخضوع للقوة وعدم استعمال القوة من أجل الانتصار في قضية مهما كانت. "أعارضُ العنف لأن ما ينتج عنه، وإن بدا خيراً، هو مجرد خير مؤقت؛ أما حصيلته فهو شر دائم".

"لا أؤمن بالضربات العنيفة السريعة المركزة من أجل تحقيق النجاح... فمهما كان مقدار تعاطفي مع الدوافع النبيلة وإكباري لها، أنا خصم لدود للأساليب العنيفة حتى وإن خدمت أنبل القضايا... التجربة تزيدي قناعة بأن الخير الدائم لا يمكن أن يكون مطلقاً حصيلة ضلال أو عنف".

ولم تمضِ سوى ثلاثة عشر سنة، وكان غاندي وقتئذٍ في السابعة والثلاثين من عمره، حتى أثمرت هذه القناعة العميقة إلهاماً للمقاومة اللاعنافية الجماهيرية. كان غاندي قد عاد للتو من أداء واجبه في الإسعاف خلال "تمرد" الزولو، وكان حديث العهد بالقرار الذي اتخذه بشأن تكريس نفسه كلياً لخدمة المجتمع. كانت الفرصة بانتظاره. لقد أدخلت حكومة البيض في ترانسفال تشريعاً جديداً يحرم الهنود في جنوب أفريقيا من حقوق مدنية كانت محفوظة لهم بموجب القانون. وإذا تم تمرير "القانون الأسود" فذلك سيعني النهاية للمجتمعات المحلية الهندية في جنوب أفريقيا. وتجمع حشد هائل من الهنود في جوهانسبرغ بناء على اقتراح من غاندي لكي يتخذوا قراراً بشأن وجهة المقاومة التي سيتبنونها. لم يكن غاندي قد هيا في ذهنه أية خطة؛ كل ما يعرفه هو أن "الموت أفضل من الخضوع لمثل هذا القانون". لكن وسط ذلك الحشد الهائج الجاهز للقيام بأعمال عنف متطرفة، هبط الإلهام على غاندي ليعرض تحدٍ أعلى: رفض الانصياع لمثل هذا التشريع المهين، وتقبّل العواقب دون مقابلة العنف بمثله لكن دون التنازل قيد أنملة عن مطلبهم في معاملة عادلة ومتساوية في ظل القانون. وهبّ كل الرجال والنساء الحاضرين لتلبية التحدي، آخذين على أنفسهم عهداً بالمقاومة اللاعنافية حتى الرمق الأخير. "وهكذا خُلِقَ المكافئ الأخلاقي للحرب"، كما كتب غاندي بيهجة المنتصر.

"العصيان المدني حق متأصل للمواطن. فالمواطن لا يجروء على التخلي عن هذا الحق دون الانتقاص من كونه إنساناً. العصيان المدني لا يستجرّ خلفه الفوضى على الإطلاق؛ العصيانات الإجرامية هي التي يمكن أن تؤدي

إليها. وكل دولة تسحق العصيانات الإجرامية بالقوة، إذ أنها ستتهار إن لم تقم بذلك. لكن قمع العصيان المدني هو محاولة لسجن الضمير".

"لكي يكون العصيان مدنياً يجب أن يتسم بالإخلاص والاحترام والانضباط وعدم الاستفزاز، ويجب أن يُبنى على أساس مبدأ مُتفق عليه ومفهوم تماماً، وألا يكون نزوياً، أو ينطوي على كراهية أو سوء نية مبيتة".

انتشرت الحركة بسرعة في أنحاء جنوب أفريقيا. فما اقترحه غاندي كان نهجاً جديداً تماماً للقتال. بدلاً من إثارة سعيير الكراهية بالكراهية، والعنف بالعنف، كان يؤمن بإمكانية دحر الاستغلال ببساطة عن طريق مقابلة الكراهية بالمحبة، والازدراء بالاحترام، مع رفض شديد وحازم للخضوع للظلم. كان أسلوباً في المقاومة يقتضي غاية الشجاعة والالتزام، مما يجعل من كل نكسة مؤقتة حافزاً يشدّ أكثر من عضد المقاومين. لقد حُكم على آلاف من الرجال والنساء والأطفال بالسجن نتيجة تحديهم العلني والمنضبط لحال الاستغلال في جنوب أفريقيا.

كانت واحدة من أولى تفاعلات حملة غاندي لقاءه برئيس حكومة ترانسفال، الجنرال جان سمّس Jan Smuts. في تلك الأثناء، كان غاندي قد طور المبادئ الأساسية أسلوبه الأخير، ومن السهل تخيّل جالساً قبالة المقاتل القدير في حرب البوير يُبلّغه بهدوء: "جنّت لكي أخبرك أنني سأقاتل ضد حكومتك".

لابد أن سمّس كان يعتقد أنه بصدد سماع أمور هامة، فيقول ضاحكاً: "أنت تقصد أنك جنّت إلى هنا لكي تخبرني بذلك؟ هل هناك ما تود إضافته؟".

يقول غاندي: "أجل. وأنا سأفوز".
يُصاب سَمْتَس بالدهشة. ويقول أخيراً: "حسناً، وكيف لك أن تحقق ذلك؟".

يبتسم غاندي: "بمساعتك".

بعد سنوات، اعترف سَمْتَس - وإن بدعابة - أن هذا هو بالضبط ما فعله غاندي. فبشجاعته وتصميمه ورفضه انتهاز فرص غير عادلة، وعلى الأخص طاقته اللامحدودة على "المثابرة" بلا خضوع أو مقابلة الأذى بمثله، استطاع غاندي أخيراً أن يحظى باحترام الجنرال وصداقته، وتم إبطال القوانين المهينة بحق الهنود واحداً إثر واحد.

"الحقيقة مُقيمة في كل قلب بشري، وعلى المرء البحث عنها هناك، والاسترشاد بها حالما يدركها. لكن لا أحد يمتلك الحق في إجبار الآخرين على العمل وفقاً لرؤيته الخاصة عن الحقيقة".

ساتياغراها Satyagraha، المصطلح الذي أطلقه غاندي على هذا النهج الجديد للتغلب على الظلم، يعني "التمسك بالحقيقة" أو "قوة الروح" -soul-force. حيث تعني ساتيا Satya "الحقيقة" باللغة السنسكريتية، وهي مشتقة من Sat، الذي يعني ببساطة "ذاك الموجود". والفكرة الكامنة وراء ساتيا هي أن الحقيقة تُوجد بمفردها؛ لأن الحقيقة ليست ما يَصَحّ فحسب في مكان ما وفي زمان ما أو تحت شروط معينة، بل هي ما لا يتغير مطلقاً. فالشروع والمظالم والكرهية، كما يؤكد غاندي، تُوجد فقط بقدر ما نقدم لها السند؛ فليس لها وجود خاص بها، وبدون تعاوننا، بقصد أو بلا قصد، لا يمكن لها أن تستمر.

هذه هي التعاليم الروحية العظيمة المحركة للتعاون اللاعنفي. وطالما يتقبل شعب الاستغلال، فإن المستغلين والمستغلين كلاهما سوف يتناسجان في شبكة الظلم. لكن حالما يرفض المستغلون هذه العلاقة، يرفضهم التعاون مع المستغلين، سيغدون أحراراً في الحال.

اختبر غاندي الساتياغراها في جنوب أفريقيا لمدة سبع سنوات مُظهراً أنها تفعل فعلها، حتى في أراضٍ أجنبية، ضد حكومة شديدة البأس وعدائية. وعاد إلى الهند محارباً متمرساً في المقاومة اللاعنفية، وهو على ثقة بأن بوسعه تحرير الهند من الهيمنة البريطانية بالوسائل السياسية، بدون حرب، وبدون عنف، إن رضي الهنود بزعامته والتزموا تماماً بالمُحدّدات اللاعنفية التي بسطها أمامهم. قال بتحدٍ: "اختر غايتك، غَيْرِيّاً، بدون أي تفكير بالمتعة الشخصية أو المنفعة الخاصة، ومن ثم استخدم الوسائل الغَيْرِيَّة لبلوغ تلك الغاية. لا تلجأ إلى العنف وإن بدا لك للوهلة الأولى أنه يَعدّ بالنجاح؛ فالعنف يناقض غايتك. استخدم سبل المحبة والاحترام حتى لو بدت النتائج بعيدة أو غير مؤكدة. ثم ألق بنفسك في الحملة، غير آبه بالثمن الباهظ الذي ستدفعه من أجل العمل على رفاهة الذين من حولك، وستزيدك كل نكسة وكل هزيمة ثراء نفسياً أعمق فأعمق. لا يمكن للعنف مطلقاً أن يضع حداً للعنف؛ فكل ما يمكن للعنف أن يفعله هو إثارة المزيد من العنف. لكن إذا اعتصمنا باللاعنف التام، ستكون حرية الهند مضمونة".

قال المؤرخ ج. ب. كريبلاني، الذي أصبح واحداً من أقرب رفاق غاندي في العمل، أنه في المرة الأولى التي استمع فيها إلى غاندي متحدثاً بهذه الطريقة، نهض متجهاً نحوه وقال له بصراحة: "سيد غاندي، قد تكون مُلمّاً

تماماً بالكتاب المقدس أو بهُغَفَاد غيتا، لكنك تجهل التاريخ تماماً. لم تستطع أمة قط أن تحرر نفسها بدون عنف".

ابتسم غاندي مُصَحَّحاً له بلطف: "أنت لا تعرف شيئاً عن التاريخ. أول ما عليك تعلّمه حول التاريخ هو أنه إذا لم يكن قد حدث أمر ما في الماضي فذلك لا يعني أنه لا يمكن أن يحدث في المستقبل".

"في عصر المعجزات هذا، لا يستطيع أحد القول عن أمر ما أو فكرة أنهما عديما الجدوى أو بلا قيمة لمجرد أنهما جديدان. فالقول باستحالة أمر لأنه صعب لا ينسجم مع روح العصر. الأمور التي لا تطالها الأحلام تُرى يومياً، والمستحيل يصبح ممكناً على الدوام. وتُصاب بالدهشة باستمرار في هذه الأيام بسبب المكتشفات المذهلة في مجال العنف. لكنني أؤكد أن المكتشفات العصبية على الأحلام وتبدو مستحيلة ستُجَزَّز في مجال اللاعنف".

باتت ساتيا وأهمسا، الحقيقة واللاعنف، شعارا غاندي الثابتان. كانا في

تجربته "وجهين لعملة واحدة"، أسلوبين للنظر إلى الواقع التجريبي ذاته.

كانت ساتيا تعني بالنسبة إليه الحقيقة الأعمق للوجود، حيث كل الحياة واحدة. وقد عرض بوذا الرحيم البرهان: عندما يكره شخص شخصاً آخر، يقع الكاره مريضاً - جسدياً، عاطفياً، روحياً. وعندما يحب، هو الذي يغدو مُعافى. الكراهية تقتل؛ والمحبة تُشفي.

ساتياغراها تعني "التمسك بهذه الحقيقة" في كل موقف، ولا يهم كم هي العاصفة عاتية. ولأن الساتياغراهي الحقيقي لا يبغي شيئاً لنفسه، فإنه لا يخشى الدخول في أي صراع من أجل الذين من حوله، دون عداوة، دون

امتعض، ودون أن يلجأ حتى إلى عبارات نابية. وحتى في مواجهة أكثر الاستفزازات تطرفاً، لا يسمح لنفسه أبداً نسيان أنه هو والمعتدي عليه واحد. هذه هي أهـمسا، التي هي أكبر من مجرد غياب للعنف؛ إنها محبة مكثفة. لا تتطوي الكلمة السنسكريتية أهـمسا على دلالة سلبية أو خاملة كما هي في الترجمة الإنكليزية "اللاعنف" Nonviolence. فالمعنى الضمني لأهـمسا أنه عندما يهدم كل عنف في القلب البشري، فإن ما يتبقى هو المحبة. إنها لا تقتضي منا السعي لاكتسابها؛ فهي موجودة دوماً، ولا تحتاج سوى إلى الكشف عنها. إنها هي طبيعتنا الحقيقية، التي ليست مجرد أن نحبّ شخصاً هنا وآخر هناك، بل أن نكون المحبة ذاتها. ساتياغراها هي المحبة في صيغة عملية.

"الساتياغراهي يودّع الخوف، لذا لا يخشى الوثوق بخصمه. وحتى لو خادعه الخصم عشرين مرة، فإن الساتياغراهي على استعداد للوثوق فيه للمرة الحادية والعشرين، لأن الثقة بالطبيعة البشرية هي من صلب عقيدته".
"في الساتياغراها، ليس الاعتبار للعدد إطلاقاً، بل للكيفية دوماً، خصوصاً عندما تكون قوى العنف هي المسيطرة".

ثم، ما يتم نسيانه على الغالب هو أن الساتياغراهي لا يبيّت إطلاقاً نية لإحراج الأثم؛ فالمناشدة لا ترمي إلى إثارة الخوف لدى مرتكب الأذية مطلقاً، وإنما تتوجه، ويجب أن تتوجه، إلى قلبه دوماً. هدف الساتياغراهي هو هداية المعتدي، وليس إكراهه. وينبغي على الساتياغراهي تجنب التصنّع في كل أعماله، والتصرف بتلقائية وبدافع من قناعة داخلية".

"الساتياغراها لطيفة، لا تجرح إطلاقاً. ويجب ألا تكون حصيلة غضب أو خبث. إنها لا تتطوي على اهتياج ولا نفاذ صبر ولا صخب على الإطلاق. إنها النقيض المباشر للقسر. إنها البديل الناجز للعنف".

أهمسا هي الدهارما Dharma الخاصة بنا، القانون المركزي لكنيوننتا، منقوشة في كل خلية من خلايانا. لقد اعتاد غاندي على القول إن "قانون الغاب" صحيح كل الصحة بالنسبة للحيوانات؛ فالعنف هو دهارماهم. أما بالنسبة للبشر، فلكي يكونوا عنيفين، يُفترض بهم أن يقبلوا مجرى التطور ويُوعلوا عكس طبيعتهم العميقة، والتي هي المحبة والتحمل والغفران.

"أضبط نفسي لكي أفقد القدرة على كراهية أي كائن على وجه البسيطة. وعبر مسار طويل من الانضباط الوری كفت منذ أكثر من أربعين سنة عن كراهية أيأ كان. أعرف أن هذا يتطلّب الكثير، ومع ذلك أنا أقوم به بكل تواضع.

بيد أني أكره - وبوسعي ذلك - الشر حيثما وُجد. أكره نظام الحكم الذي أقامه البريطانيون في الهند. أكره الاستغلال عديم الرحمة للهند بقدر ما أكره من أعماق قلبي نظام النبذ الطبقي الشائن الذي يتحمل مسؤوليته الملايين من الهندوس. لكني لا أكره البريطانيين المستبدين كما أرفض أن أكره الهندوس المستبدين. وأنا أسعى إلى إصلاحهم بكل طرق المحبة المتاحة لي. وليس لدعوتي إلى اللاتعاون جذور في الكراهية، بل في المحبة".

لقرون من الزمن، خضع ملايين من الناس في الهند لمعاملة وحشية وتمييز هائلين من قبل الطبقات العليا باسم النظام الطبقي. لكن غاندي، وقد تعلّم من خبرته الشخصية الحقيقة العظيمة "كما تزرع تحصد"، أدرك الصلة

الضمنية العميقة بين استغلال الهند لهذه الملايين من المُفقرين واستغلال بريطانيا العظمى للشعب الهندي. فكان من أولى الخطوات التي أقدم عليها، لكي يعيد للهند احترامها الذاتي ووحدها، هو البدء بتحرير هذه الطبقات الدنيا. فالاسم السابق لهؤلاء الناس - وهو اسم فظيع باللغة السنسكريتية - يعني "النجسون". كان الاسم بحد ذاته يُديم شعورهم بالدونية والعار. لكن غاندي بدأ في تغيير هذا الوضع على نحو مفاجئ من خلال منحهم لقباً مختلفاً: هاريجان Harijans، أبناء الله.

قاد غاندي الحملة من جنوب الهيمالايا إلى سيلان. كانت الرسالة واحدة في كل مكان: "كلنا واحد. عندما تُسبب معاناة للآخرين فإنك تجلب المعاناة لنفسك. وعندما تُضعف الآخرين فإنك تضعف نفسك، وتضعف الأمة بأسرها". وفي إحدى المناسبات سيجعل الهند كلها تشعر بالخجل برفضه دخول المعبد الكبير الذي ظلت أبوابه مغلقة لقرون في وجه المتعبدين الهندوس من الطبقات الدنيا. وسيقول للجموع التي احتشدت للاستماع إليه: "ما من إله هنا. لو كان الله هنا، لأُذن لجميع الناس بالدخول إليه. الله في قلب كل واحد منا". وبسبب المحبة التي يكنّها الناس له، كانت مثل هذه الكلمات تتغلغل في أعماقهم. وبعد قرون من الإقصاء، بدأت المعابد والمنازل في كافة أنحاء الهند في فتح أبوابها للجميع.

حيثما كان يحلّ غاندي، كان يجمع أموالاً من أجل الهاريجان. لقد اعتادت النساء الهنديات من الطبقة الوسطى، لاسيما في القرى، على التزيّن بكل ما يملكن من حلّيّ ذهبية. وكان هناك قول شائع بأن أفضل بنك للرجل هو عنق زوجته. لقد وجد غاندي في هذا السلوك نوعاً من التفاخر في حين

كانت غالبية البلاد تقترب من حافة المجاعة، فكان ينتهز كل فرصة متاحة لدعوة هؤلاء النساء للتخلي عن قلاذاتهن وأقراطهن وأساورهن وخلاخيلهن الذهبية وبيعها من أجل خدمة الهاريجان. ولم ينجُ حتى الأطفال من أمير المتسولين هذا. كان سحر غاندي لا يُقاوم إلى حد أنه في كل محطة يتوقف فيها القطار الذي يقفُّه، مهما كان الوقت ليلاً أم نهاراً، كانت تتجمع حشود كبيرة من كل الأعمار بانتظاره لكي يدسّوا أموالهم ومجوهراتهم في يديه الممدودتين.

في تلك الأيام، كانت درجات القطار في الهند ثلاثة: مقصورات الدرجة الأولى وهي مخصصة فقط للنخبة البريطانية الحاكمة، والدرجة الثانية للطبقات العليا في المجتمع الهندي، أما الدرجة الثالثة - وهي عبارة عن مقاعد خشبية طويلة قذرة - فنُتِرك للغالبية العظمى من الهنود، وهم الفقراء. كان غاندي، الذي ربط مصيره بمصير الفقراء من خلال مشاركتهم أساليب عيشهم، يفضل دوماً السفر في الدرجة الثالثة خلال تلك الحملات. وعندما كان يُسأل عن السبب، كان يجيب مبتسماً: "لأنه ليس هناك درجة رابعة".

في إحدى المناسبات خلال تلك الحملات، حضر أحد المبشرين، وكان ميسور الحال على نحو واضح، إلى غاندي يطلب المشورة عن الطريقة التي يمكنه بها مساعدة الناس المنبوذين في القرى الهندية. كان جواب غاندي يُبطن تحدياً لأساس حياته بالذات: "علينا أن ننزل من عليائنا ونعيش معهم، ليس كدخلاء، بل كأناس منهم بكل السبل، وأن نشاطرهم أعباءهم وأحزانهم". هذا هو جوهر منهج غاندي. وفوق ذلك، كان يجعل من شخصه مثلاً عملياً للتعلّم. لقد التحق بالهاريجان وعاش معهم؛ ومن أجل تشجيعهم على

تحسين صحتهم الشخصية والعامة، غدا خادماً لهم. وبنى مئات من أتباعه بيوتاً للهاريجان في القرى الفقيرة في أنحاء الهند كافة؛ وكانوا يعيشون معهم هناك، يعلمونهم ويشجعونهم بأمثلتهم الشخصية على تحرير أنفسهم من العبودية والجهل والبؤس والخرافة والفاقة، الناجمة عن ثلاثمائة سنة من الاستغلال الأجنبي. وكتب غاندي، ذات مرة، إلى أحد هؤلاء المتطوعين، وكانت امرأة إنكليزية اسمها ماري بار، أنه إذا كان من الممكن التخفيف من معاناة الجموع الفقيرة في الهند بدون ترحيل الطود البريطاني عن التراب الهندي، فإنه لن يقاتل في سبيل استقلال الهند، بل سيبقى مخلصاً للإمبراطورية. لكن الفقراء هم من كانوا يعانون أكثر من الهيمنة البريطانية، ومن أجلهم اندفع للانخراط في الكفاح في سبيل حرية الهند.

"الرؤية روح الحقيقة الكونية وجهاً لوجه، يتوجب على المرء محبة الأضعف من الخليفة كما يحب نفسه. والإنسان الذي يتوق إلى ذلك لا يمكنه أن يقوى على البقاء بعيداً عن أي مجال في الحياة. ولهذا السبب جذبني تكريس نفسي للحقيقة إلى المجال السياسي؛ وبوسعي القول دون أدنى تردد، وبكل تواضع أيضاً، أن أولئك الذين يقولون أن الدين لا يملك ما يفعله للسياسة لا يدركون ما يعنيه الدين".

في المراحل المبكرة من كفاح الهند من أجل استقلالها، كان هناك الكثير من الأحداث القاسية التي لطخت صفحات التاريخ البريطاني. عندما عاد غاندي من جنوب أفريقيا، أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت تلوح في الهند نذر ثورة عنيفة تحت وطأة القمع المُتسَرِّ بذرعة الأحكام العرفية. وبدت الساتياغراها أخيراً أنها العلاج الوحيد لوحشية سوء الحكم الاستعماري،

وأخذت السجون تكتظ حين لبي آلاف من الرجال والنساء دعوة غاندي المتحدية إلى الكفّ عن كل أشكال التعاون مع مؤسسات الحكومة البريطانية. كانت العقوبة سريعة، وشروط السجن قاسية. لكن الاعتقالات لم تثن الهنود عن التخلي عن وظائفهم الحكومية والتوقف عن دفع الضرائب وتعريض أنفسهم للسجن.

ثم جاء دور غاندي أيضاً فأعتقل بتهمة التحريض على التمرد والعصيان. وقد أتاحت له محاكمته - وهي المحاكمة الوحيدة التي وفرتها الحكومة له - منبراً لعرض اتهام قاس ومفصّل للاستغلال البريطاني، مما بدا أمام الناس في الهند وبقية بقاع العالم أنها لم تكن محاكمة لغاندي بل للاستعمار نفسه.

"ليست لدي الرغبة مطلقاً أن أكتف عن هذه المحكمة حقيقة أن الوعظ بالسخط تجاه نظام الحكومة القائم قد أصبح تقريباً شغفاً لدي..."

"قليل من قاطني المدن من يعرف كيف تعيش الجموع شبه المعدمة في الهند حياة هي أقرب إلى الموت. قليل منهم من يعرف أن رفاهيتهم البائسة هي حاصل للسمرسة التي ينالونها مقابل العمل الذي يؤديه للمستغل الأجنبي، وأن أرباحهم وسمسرتهم تُمتص من عرق ودماء الجماهير. قليل منهم من يدرك أن الحكومة القائمة بحكم القانون في الهند البريطانية هي من يدير استغلال الجماهير هذا. لا سفسطة ولا تلاعب بالأرقام ولا خداع في المظاهر يمكن أن يطمس الدليل على أن الهياكل العظمية في الكثير من القرى جليّة للعيان".

"أعتقد أنني قدّمت خدمة للهند وإنكلترا بتبيان أنه في نهج التعاون تتكشف الحالة اللاسويّة التي يعيش فيها كلا الطرفين. وبرأيي، اللاتعاون مع الشر هو واجب بقدر ما هو التعاون مع الخير واجب. في الماضي، كان يُعبّر عن اللاتعاون على نحو متعمد بأشكال عنيفة ضد فاعل الشر. لكنني أسعى إلى أن أبيّن لأبناء جلدتي أن اللاتعاون العنفي لا يعمل سوى على تناسل الشر، وأنه طالما بإمكان الشر إطالة أمده بواسطة العنف فقط، فإن الكفّ عن مساندة الشر يتطلب الامتناع عن استخدام العنف.

"ينطوي اللاعنف على خضوع طوعي للعقاب بسبب اللاتعاون مع الشر. وبناء عليه، أنا هنا لكي أعلن ترحيبي وخضوعي بصدر منشرح لأشدّ العقوبات التي يمكن أن تُنزل بي بسبب ما يعتبره القانون جريمة متعمدة، وما يبدو لي أنه أسمى واجب للمواطن. سيدي القاضي سادتي المستشارون، ليس أمامكم سوى سبيل وحيد من اثنين: إما أن تستقيلوا من مناصبكم وبذا تتأوا بأنفسكم عن الشر، إن كنتم تشعرون أن القانون الذي تصدرون الأحكام بموجبه هو شر، مما يعني في الواقع أنني بريء، أو تُنزلوا بي أفسى العقوبات إذا كنتم تعتقدون أن النظام والقانون اللذين تساعدانها في الحكم هما لخير الشعب في هذا البلد، مما يترتب عليه أن نشاطاتي ضارة بالصالح العام".

في سنوات اللاتعاون تلك، استطاع غاندي جذب بعضاً ممن أصبحوا أقرب أصدقائه والعاملين معه، رجالاً ونساء من خلفيات مختلفة تماماً من شتى الجنسيات تشاركوا في تجربة مركزية واحدة؛ وكان كل منهم قد أتى إلى غاندي لكي يعاين ما يحصل على أرض الواقع فمكث هناك رغبة منه

بالمشاركة في الخدمة العامة. كان مجرد اللقاء بغاندي يُعدّ مجازفة في التحول إلى شخصية محوطة بالإعجاب، وكانت حيوات أعداد غفيرة من الرجال والنساء العاديين وحتى الأطفال تتحول بالكامل بتأثير هذا الرجل ضئيل البنية، الذي كان يطالب الجميع بالتحلي بأقصى درجات الإيثار والمحبة. ولم يكن حتى خصومه مستثنيين من ذلك. وكان يتم تحذير رجال الإدارة البريطانية المزمع إرسالهم إلى الهند لأداء ما يُفترض أنه واجبهم: "لا تقتربوا من غاندي؛ سيكسبكم إلى جانبه لا محالة".

كان جواهرلال نهرو Jawaharlal Nehru واحداً من الأوائل في الهند الذين لاقوا هذا القدر. كان والده، موتيلال نهرو Motilal Nehru، محامياً يحظى بالنفوذ وينتسب إلى عائلة هندوسية على قدر كبير من الثراء والثقافة. وعندما عاد الشاب جواهرلال إلى الهند بعد إتمام دراسته الجامعية في كمبردج، حيث اعتاد على ممارسة لعبة البولو والتزلج على الثلج في جبال الإلب، كان غريباً تماماً عن أرضه وشعبه. ومع أن العادات البريطانية كانت هي السائدة في بيته، كان جواهرلال مستاء من الحكم البريطاني، فالتقى على الفور مع شباب "ثوريين" متحمسين كان يبدو لهم نهج اللاتعاون اللاعنفى سبيلاً في غاية البطء من أجل بلوغ الحرية.

لكن غاندي جرّده من كل حججه، إذ قال مخاطباً أولئك الشباب: "أنتم تتحدثون على الدوام عن الثورة. وها أنذا أخلق واحدة. ما هو الجوهر الثوري في العنف؟ إن كنتم حقاً تحبون شعبكم، أعيونوني على التوضيح لهذا الشعب كيف يدير ظهره للعنف ويطرح الخوف جانبا".

لاقى هذا التحدي صدى في نفس نهرو. لم يكن يهم أنه وغاندي قطبين متنافرين في الكثير من مواقفهما ومعتقداتهما؛ لقد كان غاندي رجلاً من الصعب مقاومة سحره. وتخلّى نهرو عن ملبسه الأنيق وعاداته المترفة وبدأ في إغداق ثروته وموهبته لصالح حركة غاندي من أجل الاستقلال. كان هذا أكثر مما يحتمله موتيلال نهرو. فقد عمل على تنشئة ابنه على مبدأ الافتداء بالمال، وبسبب حبه الشديد له، لا بد أن حدثاً جلاً نزل به وهو يرى نبذاً من ابنه لكل ما تربي عليه. وأخيراً ذهب لمواجهة غاندي شخصياً، وناشده قائلاً: "لقد أخذت منا ابنا الوحيد. أعده لنا وسأضع ثروتني كلها تحت تصرف حملتك".

كان غاندي يصغي إليه وهو يهز رأسه، ثم قال له بابتسامة عابثة: "ما أريده ليس ابنك فقط. أريدك أنت وزوجتك وفتياتك وبقية العائلة أيضاً". وبالفعل استطع كسبهم، واحداً تلو الآخر، بدءاً من موتيلال نفسه. كان غاندي الخصم الأكثر إرباكاً لكل من واجههم. كانت كل حركة يأتي بها تلقائية، وكانت كل سنة تمر تجعله أكثر شباباً وأعمق جذرية وأوسع خبرة. كان رجالات الإدارة البريطانية في حال من الحيرة والسخط تجاه هذا الرجل الضئيل البنية الذي كان ينسحب عندما يكونون على وشك الهجوم ويهاجم عندما يهيمون بالتراجع، ويبدو على أنه الأقوى يوماً بعد يوم. لم يكن أحد يعرف ما هي خطوته التالية، إذ لم يكن محرضه على العمل حسابات تافهة لما تبدو أنها أغراض نفعية من الوجهة السياسية، بل حدس عميق كان يأتيه على الغالب في الربع ساعة الأخير فحسب.

ما من دليل أكثر وضوحاً على هذا من ساتياغراها الملح في العام 1930 التي لفتت انتباه العالم إلى كفاح غاندي والهند عامة. حتى ذلك الوقت، ولمصلحة الحملة، كانت الهند تسعى إلى وضع سيادي فحسب ضمن الإمبراطورية البريطانية. لكن مرّت عشر سنوات مريرة من القمع منذ أن بدأت حركة اللاتعاون، وبريطانيا العظمى لا تفعل شيئاً سوى تشديد قبضتها على الشعب الهندي. وفي الأول من كانون الثاني (يناير) عام 1930، وفي خطوة مفاجئة ومؤثرة، رفع حزب المؤتمر الهندي راية أمة جديدة ليقود كفاحاً من أجل استقلال تام.

كان الجميع يترقّب غاندي لفهم ما سيحدث لاحقاً. وقد بدا أن حملة ساتياغراها جديدة على وشك الانطلاق، لكن لم يكن لدى أحد، ولا غاندي نفسه، أدنى فكرة عمّا ستكون عليه هذه الحملة أو متى ستنتقل. ومرّت أسابيع كان خلالها يتصاعد التهديد بالعنف، لكن غاندي بقي ملتزماً الصمت. كانت الحكومة تنتظر بقلق؛ تخشى اعتقال غاندي، لكنه تخشى أيضاً من إيقائه طلبياً.

وأخيراً، بعد أسابيع من التروّي، أتى الجواب إلى غاندي في منام من مناماته؛ فكرة مدهشة في بساطتها. كانت الحكومة قد فرضت قانوناً يحرم الهنود من تحضير الملح الخاص بهم، لإجبارهم على الاعتماد على الاحتكار البريطاني المطلق لما هو ضرورة حياتية في بلد استوائي. كان القانون بالنسبة لغاندي مثلاً صارخاً على الاستغلال الاستعماري. فاقترح القيام بمسيرة مع 78 من أكثر مريدي الأشم موثوقية إلى بلدة دَندي Danai الساحلية الصغيرة، التي تبعد قرابة 240 ميلاً، حيث يطرح البحر على رماله

الملح مجاناً. وعندما أعطى غاندي الإشارة، كان الجميع في الهند على أهبة الاستعداد للتصرف وكأن قوانين الملح لم تكن إطلاقاً.

مع حلول صباح اليوم المحدد للمسيرة، تجمع حشد هائل من البشر خارج أشرم غاندي لإلقاء نظرة قد تكون أخيرة على هذا الشخص الضئيل البنية الذي هو على وشك أن يقلب الهند رأساً على عقب. كانت مسيرة ملحمية، أسرت انتباهه متتبعي الأخبار في كل مكان في كل مرحلة من مراحلها. حينذاك، كان غاندي في الحادية والستين من عمره، لكنه لم يبذ يوماً أفضل مظهراً من ذلك اليوم. كان يمشي بخطوات رياضية، رشيقة وخفيفة، قاطعاً قرابة 12 ميلاً يومياً. وكان يتوقف في كل قرية على الطريق لكي يعظ بإنجيل أهمساً وواجب اللاتعاون اللاعنفي. وفي كل مكان حلّ فيه، كان الناس يتوافدون بأعداد ضخمة للقائه، محتشدين على جوانب الطرق الواصلة بين البلدات، وقد فرشوا الأرض بالزهور. ولدى وصوله إلى دَندي، بعد 24 يوماً، كان جيشه اللاعنفي المؤلف من 78 شخصاً قد تضخم إلى عدة آلاف.

أمضى غاندي ومريديه ليلة وصولهم بطولها يصلون استمداداً للقوة من أجل مقاومة العنف الذي قد يتفشى بسهولة في صفوف مثل هذا الحشد الضخم. ومع بزوغ الفجر، اتجهوا بهدوء صوب البحر، وتوقف غاندي، الذي كانت آلاف الأعين تراقب كل إيماءة منه، والتقط قبضة ملح من على الرمال.

كانت الاستجابة فورية؛ زحفت حشود هائلة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، على طول الساحل الهندي نحو البحر لجمع الملح في عصيان صريح للقوانين

البريطانية. وأصبح ملح بلدهم المحظور عليهم قانونياً يُباع علناً بأسعار مخفضة لأهالي المدن الذين لم يتمكنوا من خرق القانون سوى بشراء هذا الملح. كانت البلاد بأسرها تعلم أنها قد تحررت من أغلالها، وعلى الرغم من وحشية انتقام رجال الشرطة، شاع جو من الابتهاج في كافة أنحاء البلاد. بعد أشهر، كان غاندي يتباحث مع اللورد إيرون Lord Irwin في موعد تناول الشاي، فاستلّ كيساً ورقياً صغيراً من بين طيّات رداءه، وأمام عيني نائب الملك الدهشتين، سكب بعضاً من محتواه في كوبه، وقال بعث: "سأضع قليلاً من هذا الملح في كوبي لكي يذكرنا بحفلة شاي بوسطن الشهيرة". وكان اللورد إروين يتمتع بما يكفي من الكياسة لكي يشارك غاندي الضحك.

انطلق العصيان المدني بشكل عفوي في كافة أرجاء البلاد لأسابيع بعد إشارة غاندي. أعتقل الآلاف، وضُرب الآلاف أو قُتلوا بدون أدنى إشارة لمقابلة العنف بمثله. وعلى نحو غير قابل للتفسير، بقي غاندي طليقاً. كان الوحيد القادر على حفظ النظام في تلك الحركة الكاسحة التي لا يمكن التنبؤ بنتائجها، والتي هزّت شبه القارة الهندية من جبال الهيمالايا إلى البحر.

في ليلة تلت حملة اعتقال واسعة جديدة، تجمع حشد لإقامة صلاة المساء في معسكر عمل غاندي، وهو عبارة عن بضعة أكواخ صغيرة مكشوفة مُشادة من سعف النخل يقع في منتصف الطريق بين بلدة دندي وساحل البحر. في تلك الليلة كان حديث غاندي أكثر رصانة مما هو معتاد. وبعد الصلاة والإنشاد تُلّيت قائمة طويلة بأسماء المعتقلين بصوت عالٍ على ضوء شاحب منبعث من مصباح إعصاري (هُركين Hurricane). كان الحشد

يتفرق في العادة بعد الصلاة، ويختلي غاندي ومعاونيه بأنفسهم بقية الليل. لكن قلة في ذلك المساء استطاعت النوم. لقد بدا اعتقال غاندي وشيكاً، وكان الجميع في حالة من الترقّب والتخمين والقلق عليه.

وصل رجال الشرطة في منتصف الليل، يرافقهم 30 رجلاً مزوّدين بأسلحة نارية. كان من المستحيل عليهم تمييز غاندي في تلك العتمة أو تخمين أين يمكن أن يكون. وأخيراً أشار أحدهم إلى صرة بيضاء صغيرة في أحد الأكواخ المفتوحة: "ذلك هو غانديجي". وسط كل تلك البلبلة، كان قائد الزلزال الوطني ينام ملء جفنيه كطفل صغير، واثقاً بيقين مطلق أن الرب يرقاه.

أيقظه الضابط البريطاني مسلطاً ضوء مصباح يدوي على وجهه: "جننا لاعتقال م. ك. غاندي".

أجاب غاندي بتهذيب: "أنا موهنداس كرمشند غاندي. أنا تحت تصرفك". قال الضابط: "جهاز أغراضك من فضلك، وسنمنحك الوقت الذي تحتاجه".

قال غاندي مشيراً إلى صرة صغيرة على الأرض: "أنا جاهز الآن، هذه هي كل ما أحتاجه".

وتحت أنظار رجال الشرطة، بدأ في تنظيف أسنانه القليلة بطريقته المتمهلة المعتادة. ثم، بعد صلاة قصيرة، التفت إلى الضابط المسؤول وخطا برشاقة نحو السيارة التي تنتظر في الخارج، متحدثاً بجذل مع مرافقيه. كان يعرف أن غيبته ربما تطول سنوات، ومع ذلك لم يكن هناك أي أثر للخشية أو الامتعاض في سلوكه. كان رجال الشرطة متأثرين بالوقار المتواضع لهذا

الرجل النحيل إلى حدٍ بدا لهم أنهم سجناءه وليسوا سجنانيه. كان يبدو في أفضل أحواله في مثل تلك المواقف، وفي ذروة قوته وهو تحت الضغط. كان حراً سواء في داخل السجن أو خارجه.

في تلك الأثناء، كان أكثر من ستين ألف ساتياغراهي في السجن. كان غاندي مثلاً لهم جميعاً. وبالنسبة إليه، لم يكن السجن شدةً وإنما إكليل غار، لأنه كان يعلم أن القدرة على المعاناة بشجاعة من أجل مثال أعلى هي القوة التي ستجعل من كل رجل وامرأة في الهند إنساناً حراً. كان يتقبل احتمال السجن بمثل هذا المزاج والطيب مما حدا بالناس في كافة أنحاء البلاد إلى الهزء من مخاوفهم الخاصة. وأصبحت السجن البريطانية مواقع لعمليات لمّ شمل احتفالية حيث كان القادة السياسيون الهنود المعتقلون يجدون أنفسهم وسط عائلاتهم وأصدقائهم. وكان غاندي يرسل لهم برفقيات تهنئة. وكان هو نفسه قد أُعتقل مرات عديدة إلى درجة بدا أنه دوماً إما في السجن، أو مُطلق السراح للتو، أو على وشك دخول السجن مرة أخرى.

كان غاندي منفصلاً تماماً عن محيطه المادي إلى حد أن الذهاب إلى السجن لم يكن يُوقع الفوضى في عمله على الإطلاق، وقد عقد بعضاً من أشدّ الصفقات صعوبة من خلف أسوار السجن. كانت تلك الأسوار عادة هي أسوار سجن بيرافدا Yeravda، حيث أحس ذات مرة أنه بيته، عندما سأله مُحقق بريطاني عن عنوانه، فأجاب: "بيرافدا". عندما يقوم إنسان بما يقوم به بروح من التقوى، فكل مكان يذهب إليه يكون مقدساً، وقد اعتاد غاندي على تدوين Yeravda Mandir على رسائله في السجن، والتي تعني "معبد بيرافدا". كان يستهل يومه قبل الفجر بالتأمل والصلاة، حيث كان يستمد منهما قوة

للممود أمام ما يترتب على مواقفه من ذبول. كان قادراً على قراءة الكتاب المقدس والقرآن وبهتفاد غيتا، وإجراء مراسلاته الغزيرة المعتادة كل يوم. كان هناك مقدار وافر من العمل الجسدي المطلوب إنجازه، وعدد وافر من الأعداء المفترضين وينبغي كسبهم كأصدقاء. كان يُعنى بهم جميعاً، بل ويشرف على تمريضهم عندما يمرضون، وكل يوم يمضيه في السجن كان يضيف إليه بُعداً من النمو الروحي وتحوّلاً أكثر إلى النهج اللاعنفي والكفاح من أجل الاستقلال.

"ما من مدى زمني محدد للساتياغراهي، ولا حد لطاقته على تحمل المعاناة. ومن هنا، ليس هناك ما يُدعى هزيمة في الساتياغراها".
"مصدر البهجة يكمن في الكفاح، في المحاولة، في المعاناة الناجمة عن ذلك، وليس في الانتصار بحد ذاته".

"لقد تعلمت من خبرتي المريرة الدرس الأسمى الوحيد لكبح غضبي، وتحويله، تماماً كتحويل الحرارة المحفوظة إلى طاقة. فغضبنا المنضبط يمكن تحويله إلى قوة قادرة على تحريك العالم".

من شبه المستحيل إدراك مقدار ما قد أُطلق له العنان من كراهية وعنف في الكفاح من أجل الاستقلال السياسي. كانت الهند تغلي غضباً جراء الاستغلال البريطاني، وقد أهدرت الكثير والكثير من مقاومتها في خطب الشجب والاستتكار والانتقام المشحونة بالكراهية والتحريض على الانتقام. لكن غاندي قبض على هذا الغضب ووضع في سكة العمل تحت انضباط الساتياغراها الصارم، مُبيناً بمثاله الشخصي كيف يمكن منازل الحكومة البريطانية بكل الوسائل اللاعنفية المتاحة، وبمحبّة واحترام تامين للشعب

البريطاني أيضاً. كان يعرف أن الكثير ممن جاهروا بالولاء له ليسوا مؤهلين لمثل هذا النهج اللاعنفي. لكن في كل مناسبة كان يتقجر فيها العنف من قبل أولئك الساعين إلى الحرية بالقوة، حتى لو بدا النجاح وشيكاً، كان غاندي يعلّق غاندي هجومه. لم يكن ليقود حملة للساتياغراها إن عرف أن ثمة مقداراً ضئيلاً من العنف سيُرتكب.

تدرجياً، ومع تزايد قمع الحكومة البريطانية للشعب الهندي، بدأ الشعب البريطاني يعي أن حرمان الهنود من حريتهم السياسية لا يسبب ضرراً للهند فحسب، وإنما لبريطانيا العظمى أيضاً. فالشباب المُدرَّبون جيداً - جنوداً ورجال أعمال كان بمستطاعهم، في ظروف أخرى، إثبات أقصى درجات الشجاعة والتضحية بالذات - الذين كانت إنكلترا تقدمهم قرباناً لمطامحها الاستعمارية، كانوا يُستجَرُّون إلى شبكة تلك المطامح في الهند وتتحجّر قلوبهم تجاه أولئك الذين يحكمونهم، وفي الوقت ذاته كانت حكومة بريطانيا العظمى مجبرة على التضحية أكثر فأكثر بالقيم الإنسانية لحماية أرواح وثروات مثل هؤلاء الأشخاص. وبسبب قناعته أن الإنكليز هم أخوة وأخوات له بقدر ما هم الهنود، مهما كانت أشكال أعمالهم، كان بوسع غاندي الالتفات إلى المستغلين مخاطباً: "لن نرضخ لهذا الظلم... ليس لمجرد أنه يدمرنا، بل لأنه يدمركم أيضاً". وبالتدرج بدأ موظفون بريطانيون، ومن مناصب عليا حتى، بالافتتاع بهذه الرؤية، والتحق الكثير من المواطنين البريطانيين بغاندي للعمل معه في الكفاح من أجل هندٍ حرة، سياسياً واقتصادياً.

"باعترادي، بمقدار ما يحقق الإنسان من بعد روعي، العالم برمته يكسب، وبمقدار ما ينحدر روحياً، ينحدر العالم إلى ذات المدى. حين أمد يد العون لخصومي أكون، في الوقت ذاته، عوناً لنفسي ولرفاقي".

كان غاندي في السجن عندما قرر البريطانيون الدعوة إلى انعقاد "مؤتمر طاولة مستديرة" للبتّ في مصير الهند. كان "الممثلون" الهنود، الذين دعاهم موظفو التاج البريطاني إلى حضور المؤتمر، هم المهرجات (الأمرء) والسياسيين المدعومين من قبل الحكم البريطاني إلى حد كبير. وقد روى ستانلي جونز، الميسّر الأمريكي وصديق غاندي، أن اللورد إروين، نائب الملك والحاكم العام في الهند، سأله إن كان ينبغي دعوة غاندي أيضاً إلى المؤتمر، فأجابته: "غاندي هو الهند؛ إن دعوته، فأنت تدعو الهند، وإن لم تفعل، لا يهتم عندئذ من تدعو، فالهند برمتها ستكون غائبة". وهكذا قدّم اللورد إروين، بإحراج واضح، دعوة جلالة الملك لغاندي القابع في زنزانه في سجن جلالته، سجن بيرافدا.

كان الوضع في لندن مختلفاً تماماً عن أيام ما كان غاندي يدرس القانون. فهو يعود الآن بوصفه ضيفاً للتاج البريطاني، ممثلاً خُمس سكان العالم. لكنه عندما وصل إلى لندن، قلب كثيراً من ترتيبات الأبهة المُعدّة له لكي يتمكن من الإقامة في أحد أكثر القطاعات فقراً في الهند، إيست إند East End. لقد أسر قلوب الناس هناك، وخصوصاً الأطفال. كان يمازحهم ويلعب معهم قليلاً كل يوم، مهما كان جدول أعماله مزدحماً. وكانوا يركضون خلفه أثناء تنزّله في الصباحات الضبابية في أحياء لندن الفقيرة،

محاولين مجارة خطواته الواسعة وهم يصرخون بدعابة: "هيه، غاندي، أين بنطالك؟".

خلال وجوده في إنكلترا، أصر غاندي على القيام بزيارة إلى لانكشاير، حيث توجد معظم معامل النسيج في بريطانيا. كان المطلوب من الهند، تحت الحكم الاستعماري، تصدير كل منتوجها من القطن بسعر بخس إلى إنكلترا، حيث يُصنَّع قماشاً في معامل لانكشاير ويُعاد بيعه للفقراء في الهند بأسعار تفوق سعر القطن المُصدَّر أضعافاً مضاعفة. وكان غاندي يحضّ كل الهنود، أغنياء وفقراء على تعلّم المهنة الموهلة في القدم، الغزل اليدوي، لكي يتمكن الناس في سبعمائة ألف قرية مُفقرة في الهند من استعادة عمالة وطنية واعتماد على النفس واحترام ذاتي. كما كان يطلب من كل الهنود ارتداء الخادي Khadi، القماش الأبيض الخشن المحلي الصنع، ومقاطعة القماش الأجنبي. وغدا الخادي رمزاً للاستقلال، والالتحام أيضاً بين الطبقات العليا والوسطى في المجتمع الهندي والغالبية الواسعة من الفقراء. حتى كبار الزعماء الهنود، مثل جواهرلال نهرو، كانوا يمضون قسطاً من وقتهم يومياً في نسج الخادي، فما من مؤيد للاستقلال، غني أم فقير، كان يحلم بارتداء لباس آخر. وكان حماة الإمبراطورية، أمثال السير ونستون تشرشل Sir Winston Churchill، يستشيطنون غضباً وهم يرون غاندي ملتحقاً منزله وشاله المصنوعين من الخادي حتى في مواعيد شرب الشاي في قصر بكنغهام، وساعة الجيب الفضية العتيقة تتدلى من سلسلة مربوطة بمعصمه. وذات مرة، سأله أحد المراسلين الصحفيين الإنكليز: "سيد غاندي، ألا تعتقد

أنت كنت ترتدي القليل من اللباس مما لا يليق بالمناسبة؟". فأجابه غاندي:
"لقد كان جلالته يرتدي ما يكفي لكلينا".

وأخيراً، اضطرت معامل النسيج في لانكشاير إلى الإعلان عن توقف مؤقت للعمل، وسرّح الآلاف من العمال البريطانيين من أعمالهم. وأصبحت لانكشاير تعجّ بالأيدي العاملة العاطلة عن العمل الذين يغنون بالنقمة والسخط على غاندي مُحَمِّلين إياه مسؤولية ما حدث لهم. بيد أن غاندي كان يعرف أن بمستطاع العمال الإنكليز والهنود تفهّم بعضهم البعض إن أُتيحت لهم الفرصة لذلك. ورغم خشية الحكومة البريطانية على سلامته، ذهب إلى لانكشاير للدفاع عن قضية شعبه.

تجمّع حشد كبير من العمال للقائه، رجالاً ونساءً، ممن كانوا يشعرون بأنهم خسروا أعمالهم بسبب هذا الرجل وحده. خاطبهم غاندي بهدوء: "أصغوا إليّ، من فضلكم، لبضع دقائق فقط. امنحوني فرصة لكي أعرض وجهة نظرنا، ومن ثم، إن شئتم، أحكموا علي وعلى شعبي. أنتم تقولون أن ثلاثة ملايين شخص عاطل عن العمل هنا منذ عدة أشهر. في بلدي، هناك ثلاثة آلاف مليون عاطل عن العمل لمدة ستة أشهر على الأقل سنوياً. وتقولون أنكم تمضون أياماً لا تتناولون فيها سوى الخبز والزبدة كوجبات رئيسية. لكن أولئك الناس، في الهند، غالباً ما يمضون أياماً بطولها دون أن يجدوا ما يسدّ رمقهم على الإطلاق". بهذه العبارات الصريحة المثّمة بالاحترام، لكن الحازمة تماماً، حاز غاندي على إعجابهم، فهتقوا له في ختام حديثه؛ ذلك الرجل الذي كان سبباً في بطالتهم.

"إنها [ساتياغراها] قوة تعمل بصمت وبيطء ظاهري. وفي الواقع، ما من قوة في العالم تضاهي صراحتها وسرعتها في العمل".

"اللاعنف والجبن لا يتماشيان. بوسعي تصوّر شخصاً مدججاً بال سلاح لكنه رعديد في داخله. حيازة السلاح تتمّ عن قدر من الخوف، إن لم يكن الجبن. بيد أن اللاعنّف الحقيقي أمر مُتَعَدِّر دون امتلاك جرأة غير زائفة".

كان غاندي يؤكّد دوماً على أنه من اليسير على الشخص القوي أن يصبح لاعنفيًا، وهو أمر يفوق طاقة الضعيف. فاللاعنف يعني القدرة على محبة الذين يكرهونك، والتحلّي بالصبر وإبداء التفهّم إزاء التناقضات المضطربة. إنه المبدأ الأكثر صعوبة الذي يمكن للإنسان تعلّمه في الحياة، ولهذا وَرَدَ في البهَعَفَاد غيتا أن من يريد رؤية الشجاع عليه النظر إلى من يستطيع المغفرة. فإذا كنت تريد رؤية البطل، عليك النظر إلى من يستطيع مقابلة الكراهية بمحبة.

ما من مكان تجلّى فيه هذا التحول أكثر مما بدا في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية في الهند، بين الجبال الوعرة بالقرب من ممر خيبر Khyber Pass، حيث نشأ قائد عظيم اشتهر بلقب "غاندي الحدود" Frontier Gandhi. كان خان عبد الغفار خان Khan Abdul Ghaffar Khan ينتمي إلى مجتمع محلي يسوده قانون "العين بالعين والسن بالسن". كان قومه، الباتان Pathans (قبائل البشتون)، مقاتلين شديدي البأس يتّقد التوق إلى الحرية بين جوانبهم. ورغم أن القوات البريطانية أفلحت في احتلال المقاطعة، بقي الكثير من الممرات الجبلية خارج سيطرتها. وعندما أراد غاندي الذهاب إلى تلك المقاطعة، خشيت الهند كلها على حياته. وحاول أصدقاؤه ثنيه عن عزمه:

"إنهم أناس عنيفون. ما الفائدة من الذهاب إليهم؟ إنهم لا يعرفون سوى القتال".

أجاب غاندي: "وأنا مقاتل أيضاً. أنا أريد أن أعلمهم كيف يقاتلون بدون عنف... بدون خوف".

تجمع حشد من الباتان المتشككين، والبنادق متدلية من أكتافهم، لرؤية ذلك الشخص الهزيل بمنزرة منتصباً أمامهم. سألهم بلطف: "هل أنتم خائفون؟ لماذا عليكم أن تحملوا هذه الأسلحة؟". كانوا يحدقون فيه مشدوهين. لم يكن أحد قد تجرأ قبلاً على مخاطبتهم بهذه الطريقة. وأضاف غاندي: "أنا لست خائفاً، ولهذا لست مسلحاً. هذا ما تعنيه أهيمسا". ألقى عبد الغفار خان سلاحه، وحذا الباتان حذو قائدهم، وهكذا أصبحوا من أبسل أتباع درب غاندي في المحبة.

"عقيدتي في اللاعنف هي قوة بالغة الفاعلية. لا مكان للجبن أو حتى الضعف. ثمة أمل للشخص العنفي في أن يكون لاعنفياً يوماً ما، لكن لا أمل للجبان في ذلك".

"القوة لا تتأتى من الطاقة الجسدية، وإنما من إرادة لا تُقهر".

"سمّه ما شئت من الأسماء، ذلك الذي يهب أعظم العزاء وسط النيران الملتهبة هو الله".

جاء في الكتاب المقدس: "المحبة الكاملة تنبذ الخوف". وأهيمسا محبة كاملة. إنها أبعد من أن تكون مجرد فكرة عاطفية؛ إنها تحدٍ مستمر ما استمرت الحياة، ومعركة لا نهاية لها في داخل المرء، حافلة بالعقبات الشائكة والمحن القاسية جعلت الذين خطوا في درب المحبة، من شتى

التقاليد الدينية، يزعمون أنها أمضى من نصل الشفرة. وقد صاغ غاندي المسألة بوضوح: عندما يعينك صالح شخص ما أكثر مما يعينك صالحك، وعندما تعينك حياته أكثر من حياتك، عندها فقط بوسعك القول أنك تحب. ماعدا ذلك هو مجرد علاقات عمل، عطاء مقابل أخذ. فانساع هذه المحبة لتشمل حتى أولئك الذين يكرهونك، هو بلوغ إلى المدى الأقصى لأهمسا. إنه يلامس حدود الوعي ذاته.

كان غاندي رائداً في عوالم الوعي الجديدة هذه. فكل ما كان يقوم به لم يكن سوى تجربة تهدف إلى توسيع قدرة الإنسان على المحبة، وكلما نمت قدرته على المحبة، اشتد تطلبه للمحبة أكثر فأكثر، وكأنما كان يختبر مدى ما بوسع الكائن البشري تحمّله. لكن غاندي كان قد تعلم اكتشاف فرح عارم وسط هذه العواصف والمحن. ومرة تلو الأخرى، عندما كان العنف يضرب حوله ويبدو من العصيّ مواجهته، كان يلقي بنفسه في غمار المعركة دون تفكير بعزاء أو سلامة شخصية، وفي كل مرة، في ربع الساعة الأخير، تفيض في داخله قوة عميقة تزوّده بذخر جديد من الطاقة والمحبة. وفي سنواته الأخيرة كان مفعماً بمحبة للإنسانية تشتعل في داخله ليل نهار مثل نار يصعب إخمادها.

التحديات التي واجهها في ختام حياته كانت من بين أعظم المآسي التي شهدتها التاريخ. فعشيّة الاستقلال، كانت الحرب الأهلية بين الهندوس والمسلمين في طور المخاض. كل القوى الحكومية كانت عاجزة عن إيقاف المذابح التي كان يرتكبها الطرفان يومياً تقريباً. ولأن غاندي كان يعلم ويعيش

التآخي بين الأديان كافة، كان مبعوضاً بشدة من قبل الهندوس والمسلمين على حد سواء.

لقد لامس شلال الدم والتدمير أعماق كيانه. فرغم أنه كان في منتصف السبعينات من عمره، ذهب مباشرة إلى قلب العنف، وسار حافي القدمين عبر القرى النائية المنكوبة في ولاية بيهار Bihar ونوخالي Noakhali، فكان أشبه بقوة سلام مؤلفة من رجل واحد، معتمداً حتى في طعامه على رحمة أعدائه. وأرسل بعضاً من أكثر أتباعه ثقة، ممن أختبروا في حملات أخرى وتمكنوا من إثبات رسوخ في شجاعتهم ومحبتهم، إلى قرى أخرى لكي يخذوا حذوه. لم يكن لديهم أية تعليمات سوى أن يعيشوا الحقائق التي ذهبوا لكي يعلموها: المحبة والاحترام للناس كافة، والاعتماد الكامل على الذات والجسارة المطلقة لأهمسا.

"من يرتعد أو يلوذ بالفرار حين يرى شخصين يتقاتلان هو ليس بالشخص اللاعنفي، بل جباناً. فاللاعنفي هو من يضحى بحياته في سبيل منع مثل هذا القتال".

"القوة العددية لا تُبهِج إلا الرعديد؛ باسل الروح يفخر بالقتال وحيداً". كانت نذر الحرب الأهلية، بالنسبة لغاندي، محكاً عسيراً لأهمسا، فتفجرت كل قواه لملاقاة هذا التحدي. كان يمشي ويعمل ويكتب ويتحدث ما بين 16 و20 ساعة يومياً. وبعضة مثاله الشخصي، كان حيثما حلّ يزِيل الحواجز التي نصبته الأعراف الدينية والمعتقدات الخرافية وانعدام الثقة. وفي كل مجتمع محلي كانت تحدث بعض الخوارق الصغيرة: عائلات مسلمة تخاطر في توفير ملجأ له؛ مجرمون وقطاع طرق يأتون إليه ليسلموا أسلحتهم

ويعيدوا ما كانوا قد سلبوه، أو ليقدموا إليه أموالاً لإغاثة المنكوبين. وفي إحدى القرى، كما يُروى، هجم منهوّر طائفي معروف برداءة خلقه على غاندي، أمام أنظار الجمع المشدوه، وأطبق بيديه على عنق غاندي النحيل حتى كاد يزهق روحه. ونتيجة للشموخ الذي نمّاه غاندي في داخله، لم تصدر عنه نأمة احتجاج لم يُرصد حتى بصيص عداوة في عينيه. استسلم غاندي بالكامل لفيض المحبة المتدفق في داخله، فانهار الرجل منتحباً كطفل صغير عند قدميه. لقد بدا الأمر معجزة بالنسبة لمن كان يراقب المشهد. أما بالنسبة لغاندي، الذي كان قد اعتاد على "معجزات" المحبة، فلم يكن الأمر سوى إثبات للمرة المائة في حياته على عمق كلمات البودا الرحيم: "لم تُلجَم الكراهية بالكراهية في أية مرة؛ المحبة هي من تلجم الكراهية. إنه ناموس راسخ".

"التقوى ليست مجرد تعبد شفوي، بل صراع مع الموت".

"السياسة قد تتغير، وهي تتغير بالفعل، أما اللاعنف فهو عقيدة غير

قابلة للتغيير؛ إنه مسعى متواصل ضد العنف الهائج من حولنا".

"اللاعنف لدى الإنسان اللاعنفي ليس ميزة. فإن كان كذلك، يصبح من

الصعب القول فيما إذا كان لاعنفًا حقاً. لكنه عندما يتصدى للعنف، يدرك

المرء حينها الفارق بين الحاليين. وهذا ما ليس بوسعنا إدراكه ما لم نكن

يقظين ومحترسين ومجاهدين".

"هل امتلك لاعنف الشجعان في داخلي؟ موتي وحده سيبيّن ذلك. فإن

قُتلتُ وفارقت الحياة وأنا أنطق بالصلاة من أجل قاتلي، وذكر الله والوعي به

حاضر في محراب قلبي، عندها فقط يمكن القول أنني كنت لاعنفياً شجاعاً".

"الهدف لا يفارق نواظرننا. وكلما توغلنا صوبه أكثر، زاد إدراكنا لنواقصنا. والرضا يكمن في المسعى صوب الهدف، وليس في بلوغه. فالمسعى الكامل هو نصر كامل".

الأم والطفل

انكبّ ناشطون وباحثون كثر على إجراء دراسات حول ما أسموه "سياسات غاندي" و"اقتصاديات غاندي"، بيد أن قلة منهم طرحت الأسئلة التي ينبغي أن تُسأل فعلاً. كيف أنجز غاندي ما أنجزه في حياته؟ ممّ استمد قوته؟ كيف أمكن لمثل هذا الرجل العادي الضئيل البنية، المحامي المحدود الكفاءة والمُفتقد إلى الهدف، أن يحوّل نفسه إلى شخص قادر على الوقوف منفرداً ومنازلة أعظم إمبراطورية عرفها العالم، وأن ينتصر بدون إطلاق رصاصة واحدة؟

ذات مرة، سأل أحد الصحفيين الأمريكيين غاندي، وكان متابِعاً لحركته لسنوات عدة ومن أشد المعجبين به: "هل لك أن تخبرني عن سر حياتك في ثلاثة كلمات؟".

"أجل"، أجاب غاندي بضحكة خافتة. إذ لم يكن من خصاله التهرب من تحدٍ: "تستك واستمتع!".

كان غاندي بذلك يقتبس من إيشا أوبنيشاد (Isha Upanishad)، وهو من أقدم الكتب الهندوسية المقدسة. بالنسبة إليه، لم تكن بهغفاد غيتا بمجملها سوى تفسير لهذه الكلمات البسيطة الثلاثة التي تتضمن ذروة الحكمة الإنسانية. فهذه الكلمات الثلاثة تعني أننا، لكي نستمتع بالحياة، لا يمكن أن نكون متعلّقين على نحو أناني بأي شيء: مالاً أم ملكية أم سلطة أم نفوذاً، ولا حتى عائلة أو أصدقاء. ففي اللحظة التي يهيمن علينا فيها التعلّق الأناني، نغدو أسرى لما نتعلّق فيه.

"ما أعنيه بالانفصال هو أنه لا ينبغي عليك القلق بشأن النتائج المرجوة من أعمالك، مادام دافعك نقياً ووسائلك قويمة. وهو يعني، فعلياً، أن الأمور سوف تسير في مجراها الصحيح في نهاية المطاف إن اعتيتت بوسائلك وتركت الباقي لمشيئة الله".

الانفصال، بلغة بهغفاد غيتا، هو "البراعة في الأداء". فالشخص الذي ينتابه القلق حيال نتائج عمله لا يبصر هدفه؛ إنه لا يرى سوى عقبات وعوائق منتصبة أمامه. فالشعور باختلال التوازن لصالح الصعوبات التي تعترض المرء يدفعه إلى الاستسلام أو اللجوء إلى العنف بدافع الإحباط واليأس. لكن الشخص المتحرر من النتائج والساعي فقط إلى عمل ما بوسعه دون تفكير بمنفعة أو سلطة أو جاه لا يضطرب أمام الصعوبات. فهو يرى طريقه بجلاء من خلال كل محاولة، لأن الهدف نصب عينيه دوماً.

الانفصال ليس عدم اكتراث أو لامبالاة؛ إنه شرط لازم ومشاركة فاعلة. فعلى الغالب، ما نعتقد أنه الأفضل بالنسبة للآخرين هو شكل مموّه لتعلّقنا بآرائنا: نريد للآخرين أن يكونوا سعداء بالطريقة التي نعتقد أنهم يجب أن يكونوا سعداء فيها. فقط عندما لا نطلب شيئاً لأنفسنا، نكون قادرين على إدراك متطلبات الآخرين بوضوح وكشف سُبُل تقديم المساعدة لهم.

أثناء ممارسته لمهنته، لم يكن لدى غاندي من سبيل للوصول إلى الذخر الهائل من الإبداع الكامن في داخله. فقط عندما بدأ يعيش من أجل الآخرين، وجد نفسه طافحاً بقوة يتعدّر الحدّ من تحرّرها. ومع أنه كان في السبعينات من عمره، كانت طاقته على العمل تفوق أضعافاً ما كانت عليه عندما كان في عشرينياته. وفي فترات الأزمات الحادة، التي كانت تتصاعد

بتواتر أكبر بينما كان تكريسه يتعمق، كان يرتقي إلى مستويات أعظم من الطاقة والجَدِّ. فخلال مؤتمر الطاولة المستديرة، لم يكن يأوي إلى فراشه قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً ليعود إلى الاستيقاظ في الثانية صباحاً. وكان برنامجه هو ذاته أثناء رحلته إلى مناطق نواخالي وبيهار التي كانت تشهد اضطرابات عنيفة بين الهندوس والمسلمين، وكان قد بلغ السابعة والسبعين من عمره. لكن، ولأنه قد تعلّم التخلّي عن القلق في ما يخص النجاح والفشل، استطاع أن يولي كل اهتمامه لما بين يديه من عمل، دون شعور بعبء القلق أو الإعياء.

سأله ذات مرة أحد الصحفيين الغربيين: "سيد غاندي، منذ خمسين سنة تقريباً وأنت تعمل خمسة عشر ساعة على الأقل كل يوم، ألا تعتقد أنه قد آن الأوان لكي تأخذ إجازة؟".

ردّ غاندي: "لماذا؟ أنا دوماً في إجازة".

إنها بهَغْفاد غيتا التي تعلّم بوضوح ساطع فن العيش في الحرية هذا. وكان غاندي، أولاً وأخيراً، ابناً للغيتا. ما من دراسة عن أعماله في السياسة أو الاقتصاد أو المقاومة اللاعنفية استطاعت الكشف عن المصدر الحقيقي لقوته. بيد أن غاندي نفسه يخبرنا عن ذلك ببساطة الطفل العميقة:

"كانت الغيتا، وما زالت، أمّاً بالنسبة لي منذ أن اطّلت عليها للمرة الأولى عام 1889. فأنا أبحث فيها عن إرشاد أمام كل معضلة تواجهني، ولا بد أن يكون ما أطلبه متيسراً دوماً في ثناياها. لكن عليك أن تقارب الأم غيتا بكل إجلال، إن أردت الاستفادة من عونها. فمن يريح رأسه في حضنها الواهب للسلام لن يقاسي مطلقاً من خيبة رجاء، وإنما سيكون في منتهى

السعادة. هذه الأم الروحية تهب النازر نفسه لها معرفة نضرة وأملاً متجدداً وقوة نقية في كل لحظة من لحظات حياته".

ترجمة الغيتا إلى لغة أخرى أمر مختلف تماماً عن ترجمتها إلى واقع يومي معاش. فالحالة الأولى هي مران فكري على المستوى السطحي للشخصية، ولا يهم مدى المهارة أو الجودة البحثية المنطويتين فيها. أما الحالة الثانية فتبلغ أقصى أعماق الوعي، مؤدية إلى تحول تام للشخصية والسلوك.

إذا كان بوسعنا فهم بهغفاد غيتا كدليل من أجل الحياة اليومية، نستطيع حينها فهم غاندي. لكن يستحيل إدراك الغيتا على هذا المنوال دون محاولة وضعها قيد الممارسة، كما فعل غاندي.

"الاكتفاء بمحبة أولئك الذين يحبوننا لا يستحق جدارة تسميته نهجاً لاعنياً. فأساس النهج اللاعني هو محبة من يكرهنا. أعرف أنه من الصعب اتباع قانون المحبة العظيم هذا، لكن أليس من الصعب التعامل مع جميع القضايا العظيمة والخيرة؟ محبة الكاره لنا هو أقصى صعوبة تواجهنا على الإطلاق. لكن، بنعمة الرب، حتى هذا الأمر البالغ الصعوبة يصبح من السهل إنجازه إن شئنا القيام بذلك".

"لست قادراً على تلمس أي فارق بين العظة على الجبل وبين بهغفاد غيتا. فما تصفه العظة بأسلوب تصويري، تختزله بهغفاد غيتا إلى صيغة علمية. قد لا تكون بهغفاد غيتا كتاباً علمياً بالمعنى المسلم به للمصطلح، لكنها تحاول البرهنة على قانون المحبة - قانون الهجر كما يمكنني تسميته - بأسلوب علمي".

"جاء في الغيتا: 'قم بعملك المخصّص لك وتخلّ عن ثمرته. إعمل بلا تعلق بنتائج العمل، ولا تأسرك رغبة في مكافأة".

"هذا هو التعليم الجليّ للغيتا. من يتخلّى عن العمل يهوي؛ ولا يحلّق عالياً إلا من يتخلّى عن مكاسب عمله. لكن الزهد في ثمار العمل لا يعني عدم الاكتراث بالنتيجة. ففيما يتعلق بأي عمل، لا بد للمرء من أن يعرف النتيجة المرجوة والوسائل المتاحة والطاقة على الإنجاز. ومن يحقق هذه الجهوزية، ويعفّ عن النتائج، وينهمك كلياً في تنفيذ وافٍ للمهمة الماثلة أمامه، هو من يُقال عنه أنه زاهد في ثمار عمله".

"المنذور للغيتا لا يعرف معنى للإحباط. إنه يقيم على الدوام في حالة من البهجة والسلام الخالدين، التي لا يصل إليها المتشكك أو المتفاخر بثقافته وسعة علمه، فهي مُدخّرة فقط للمتواضع في روحه، لمن يبذل في تعبدها كامل الإيمان ووحداية عقلية لا تنفصم".

"وحداية عقلية لا تنفصم" هو ما تعنيه الغيتا باليوغا. إنها النقيض التام للصراع المتواصل بين الفكر والمشاعر والعواطف والغرائز الذي هو الحال الاعتيادي لأذهاننا. اليوغا هي إعادة دمج كلي لكل هذه الشظايا على مستوى الشخصية بكاملها. إنها سيرورة التحول إلى كلّ.

أثناء مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن، كان غاندي يعايش قضية حرية الشعب الهندي في كل لحظة من لحظات يومه. كانت حياته اليومية مناشدة عفوية خلّقت تأثيراً مباشراً على الشعب البريطاني لأن غاندي كان قد تماثل تماماً مع رسالته. لم يكن مضطراً إلى التخطيط للخطابات أو إخراج الأحداث مسرحياً؛ كل ما كان يفعله هو تجسيد لما كان يؤمن به.

في إحدى المرات أثناء ذلك المؤتمر، تحدث غاندي بطلاقة أمام مجلس العموم البريطاني لأكثر من ساعتين باسم الشعب الهندي. وبعد انتهائه، تحلّق المرسلون الصحفيون حول سكرتير غاندي، مهاديف ديساي، متسائلين بدهشة: "كيف تواتيه القدرة على التحدث بطلاقة لفترة طويلة دون أي تحضير، ودون تلقين، ودون أوراق ملاحظات حتى؟".

أجاب ديساي: "ما يفكر فيه غاندي، وما يشعر به، وما يقوله، وما يفعله هو الأمر ذاته. إنه لا يحتاج إلى أوراق ملاحظات". وأضاف مبتسماً: "أنتم وأنا نفكر في شيء، ونشعر بشيء آخر، ونقول شيئاً ثالثاً، ونفعل شيئاً رابعاً، لذا نحتاج إلى أوراق ملاحظات ومصنفات لتعقّب كل ذلك".

"الآن، في هذه اللحظة التي أكتب فيها، لا أفكر مطلقاً بما كنت قد قلت قبلاً. ليس هدفي أن أكون منسجماً مع ما صرّحت به سابقاً بشأن قضية ما، بل أن أكون متساوفاً مع الحقيقة كما تُقدّم نفسها لي في لحظة ما. وكانت النتيجة أنني انتقلت صاعداً من حقيقة إلى أخرى؛ لقد جنّبت ذاكرتي توتراً غير لازم؛ والأكثر من ذلك، كلما كنت مجبراً على مقارنة ما كتبت منذ خمسين سنة حتى مع آخر ما كتبت، كنت أكتشف عدم التضارب بين الحالتين".

"سيأتي زمن يصبح فيه الفرد لا يُقاوم وتصبح أفعاله كلية الشيوخ في تأثيرها. سيحصل هذا عندما يختزل الفرد نفسه إلى عدم".

قَلّة منا ترى الحياة على حقيقتها. فمعظمنا يرى الأمور من منظوره الخاص فحسب؛ ننظر إلى الآخرين من خلال ما نحب وما لا نحب، ومن خلال أحكامنا المسبقة وتحيزّاتنا ورغباتنا ومصالحنا ومخاوفنا. هذه النظرة

الجانحة إلى الفرز هي التي تُشظّي الحياة بالنسبة لنا: شخص ضد شخص، مجتمع ضد مجتمع، أمة ضد أمة. لكي نرى الحياة كما هي، كلّ واحد غير منقسم، علينا التخلص من كل ارتباط بالمنفعة الشخصية أو السلطة أو الرغبة أو الجاه. بمعنى آخر، لا يجدي النظر إلى الحياة من خلال تشريطنا الفردي، إذ سنرى العالم ليس كما هو، بل كما تشترطه رغباتنا.

طوال سنين عدة من مثل هذا التشريط، مع المحاولة مراراً وتكراراً إرضاء رغباتنا الشخصية، نكون قد وصلنا إلى الاعتقاد بأن هذه هي شخصيتنا. في الواقع، ليس هذا سوى قناع نسينا كيف ننزعه. تحت هذا القناع يكمن كل بهاء ذاتنا الحقيقية: البسالة التامة، المحبة اللامشروطة، والبهجة الدائمة. عندما نجح غاندي في نزع هذا القناع و"جعل نفسه عدماً" عبر سنين من العيش من أجل الآخرين بدلاً من العيش من أجل نفسه، وجد أن ما قد استأصله من شخصيته لم يكن سوى انعزاله وأنانيته وخوفه، وما تبقى كان المحبة والجرأة اللتين كانتا مخفيتين هناك طوال الوقت.

كتب أحد معلمي التأمل في الهند القديمة، ويدعى باتانجالي، أنه في حضور إنسان ماتت كل عداوة في داخله، لأنه لا يتحدى أحداً، لا يمكن للآخرين أن يكونوا عدائين. في حضور إنسان مات كل خوف في داخله، لأنه لا يهدد أحداً، لا يمكن لأحد أن يخاف. إنه تعريف علمي دقيق للقوة المحرّرة في أهمسا الحقيقية.

"بالنسبة للشخص اللاعنفي، العالم بأجمعه عائلة واحدة. وبالتالي لن يخيف أحداً ولن يخيفه الآخرون".

ذات أمسية في أشرم سيفاغرام، تجمع مئات من الناس لأداء صلاة ليلية. كانت الشمس على وشك المغيب وهو الوقت الذي تبدأ الأفاعي بالخروج من ججورها بعد نهار هندي قانظ. في تلك الأمسية، شوهدت أفعى كوبرا تتسلل باتجاه الجمع. ومن المعروف أن عضة الكوبرا سريعة الفتك، وفي القرى الهندية التي تفتقر عادة إلى الإسعافات الطبية، تنثر مثل هذه الأفاعي الرعب في قلوب الناس. ومع اقتراب الأفعى، بدأت تسري موجة من الهلع في صفوف الجمع، وكان هناك خطر من أن يؤدي التدافع بين الناس إلى مقتل البعض دعساً تحت الأقدام إذا ما عمّ الذعر ودبّت الفوضى. لكن غاندي أشار للناس بالتزام الهدوء.

كان غاندي جالساً على المنصة. لم يكن يرتدي سوى دهوتي Dhoti (مئزر)، عاري الصدر والساقين والذراعين. وبينما كان الحشد يكتم أنفاسه ويراقب، شقت الأفعى طريقها مباشرة نحو غاندي وبدأت تزحف ببطء على فخذيّه.

مرت لحظة صمت طويلة لم يجرؤ خلالها أحد على الإتيان بحركة أو إصدار صوت. ولا بد أن غاندي كان يردد ترتيلته: راما، راما، راما. ويبدو أن الكوبرا، في ذات الوقت، قد فقدت كل أثر للخوف، وأحست بطريقتها الخاصة أنها بحضور إنسان لن يسبب لها أي أذى على الإطلاق. وببطء، زحفت بهدوء مبتعدة دون أن تؤذي أحداً.

"لأبسط الأشياء مقدرة خاصة على الظهور لنا أحياناً وكأنها الأصعب. وإذا كانت قلوبنا صافية، يجب ألا تعيقنا صعوبة".

"اللاعنف مسألة تتعلق بالقلب. إنه لا يصل إلينا عبر مآثرة فكرية. كل إنسان لديه إيمان بالله وإن لم يعرف. فكل إنسان لديه إيمان بنفسه وهذا ما يوصل إلى الدرجة القصوى: الإيمان بالله".

لم تكن الجرأة خصيصة امتلكها غاندي منذ ولادته. حتى في المدرسة الثانوية، كانت فرائصه ترتعد أمام أطفال أضال منه حجماً. كانت لديه فقط قدرة نامية على التحمل ورغبة حارقة لأن يصبح قوياً. كانت خادمة العائلة، رامبها، هي أول من أسرع لمساعدته. كانت تطمنه قائلة: "ما من خطأ في اعترافك بخوفك. لكن بدلاً من أن تلوذ هارباً حينما تواجه تهديداً، إثبت في مكانك وردد في ذهنك ترتيلة راما، راما مراراً وتكراراً فبوسعها أن تحول خوفك إلى جرأة".

ولأن غاندي كان يحب رامبها، فقد اتبع نصيحتها لفترة من الزمن، لكنه ما لبث أن نسيها. فبالنسبة لعقليته الشابة الناشئة في جو من التعليم الغربي، لا بد أن يبدو تكرار ترتيلة فعلاً ميكانيكياً وضرباً من الخرافة. لكن غاندي كان ذو تفكير علمي لا يجعله يؤمن أو لا يؤمن بشيء ما لفترة طويلة دون اختباره بنفسه. فالبذرة التي زرعها رامبها عميقاً في وعيه استمرت طوال طفولته، وأخيراً، عندما بدأت عواصف الصراع والكراهية العرقية تضرب حوله في جنوب أفريقيا، وافته الترتيلة مجدداً من أعماقه. وبالتدرج، كما أكدت نفسها في حياته، غدت الترتيلة سنده الأكبر ومصدر قوة لا يجانبه الصواب.

"تصبح الترتيلة قوام حياة المرء، وهي تسعفه في كل محنة يُبتلى بها".
"كل تكرار... له معنى جديد، كل تكرار يقربك أكثر فأكثر إلى الله".

الترتيلة هي صيغة روحية اكتشف فيها الملتزمون من كافة النواميس الدينية إمكانية تحويل ما هو سلبي في الشخصية إلى ما هو إيجابي: الغضب إلى حنوّ، الضغينة إلى طيبة، الكراهية إلى محبة. فتسكين العقل يجعله يدمج تدريجياً الأفكار المتفرقة والمتعارضة في مستوى من الوعي أكثر عمقاً.

ترتيلة غاندي، راما، هي وصفة للابتهاج الدائم. لقد اعتاد غاندي على المشي عدة أميال في اليوم مردداً الترتيلة في ذهنه إلى أن يبدأ إيقاعها وإيقاع خطواته بالانتظام مع إيقاع تنفسه، الذي هو على صلة وثيقة بإيقاع الذهن، كما بدأ العلماء يثبتون. وعندما كان الخوف أو الغضب يهددانه، كان الاعتصام بـ راما يستخدم قوة هاتين العاطفتين لتشغيل صيغة الابتهاج العميق هذه في ذهن غاندي. الإغفاء على إيقاع راما، راما كان يجعله ينام نوماً رغبياً. وعلى مر السنين، وفيما كانت الترتيلة تخترق شكوكه ومخاوفه الأكثر عمقاً، أصبح مقيماً في قلب البهجة. كانت عادة ذهنية لم يستطع اضطراب خارجي أن يخلخلها، أو يفنيها تهديد بالعنف.

لابد أن رامبها أخذت غاندي، في صغره، مرات عدة لمشاهدة فيلة المعبد وهي تسير في المواكب المقدسة عبر شوارع سوق بوريندر الضيقة المتعرجة، شاقّة طريقها بين صفوف أكشاك بيع الفواكه والخضروات. كانت هذه الفيلة، بعيني رامبها الورعتين، أيضاً نابضاً بالحياة لما يمكن أن تفعله ترتيلة راما. فبينما تسير الفيلة عبر الشوارع بين الدكاكين وخراطيمها تتلوى بهياج من جانب إلى آخر مثل الأفاعي، كانت تعرف من سلال جوز الهند والموز وترميها في أفواها الكهفية. لا يمكن لتهديد أو وعيد أن يهدئها. لكن مدرب

الفيلة الماهر، الذي يعرف فيله ويحبه جداً، يمد له عصا خيزران فيلفّ الفيل خرطومته حولها ويهدأ. ولا يعود هناك هياج أو اختلاس من السلال. ويمشي الفيل عبر الشوارع المزدهمة ورأسه شامخ، رافعاً عصا الخيزران أمامه باعتزاز، ولا يولي جوز الهند أو الموز أدنى اهتمام.

قد تكون رامبها قالت لموهنداس الصغير: "عقلك يشبه كثيراً خرطوم الفيل ذاك، ما ان يتشبث بالترتيلة حتى يتبدد كل هياج فيه". إنها الرسالة ذاتها التي توصلها بهجّافاد غيتا: اجعل عقلك ثابتاً في كل ظرف - في النصر والهزيمة، في الإطراء والملامة، في المحبة والكراهية - ولن تستطيع قوة أن ترحزك عن هدفك حيثما وليت وجهك. حينها، يمكنك أن تدّعي أنك حراً.

الترتيلة تسكّن العقل وتهيؤه للتأمل الذي هو مفتاح هذا التحول للشخصية والوعي. التأمل ليس طقساً دينياً؛ إنه انضباط دينامي بمعزل عن أي معتقد أو عقيدة، تُستحضّر فيه كامل قوى التركيز الفكري للمرء للذنو من مثاله ذي الأولوية وإقحامه في كل خلية من خلايا العقل، إلى أن يستنفذ تدريجياً كل المثل والأهداف الأصغر. ويدخل المرء، عبر عملية التدريب هذه، إلى أعماق مستويات الوعي التي تثور فيها عواصف الصراعات الراسخة ليل نهار بلا انقطاع. في هذه الأعماق المرعبة، كما قال غاندي، تتصارع المحبة مع الغضب والخوف "وفي نهاية المطاف، تتغلب المحبة على كل المشاعر الأخرى".

مبدأ التأمل هو أن تغدو ما تتأمل فيه. كان غاندي يتأمل "بوحداية عقلية لا تنفصم" حول مثال بهجّافاد غيتا: الإنسان الذي يتخلى عن كل

مباهج الحياة من أجل محبة إهداء الخدمات للآخرين، ويعيش في حرية وابتهاج.

"الأبيات الشعرية الثمانية عشرة الأخيرة من الفصل الثاني في الغيتا تقدم بإيجاز كليّ سرّ فن العيش".

"لقد نُفِست تلك الأبيات على صفحة قلبي. إنها، بالنسبة لي، تتضمن كل المعرفة. الحقائق التي تعلمني إياها هي 'حقائق أبدية'. ثمة حجة فيها، إلا أنها تقدم معارف مُدرّكة".

"لقد قرأت في ما مضى العديد من الترجمات لتلك الأبيات والكثير من التعليقات عليها، وناقشت واحتكمت إلى اطمئنان قلبي، لكن الانطباع الذي خلّفته في نفسي قراءتي الأولى لها لم يُمَحّ قط. تلك الأبيات هي المفتاح لتأويل الغيتا".

ينتهي الفصل الثاني من بهفّاد غيتا بوصفٍ للحالة الأسمى للوعي التي يمكن للكائن البشري بلوغها. إنها التعبير الأكثر غنى لمثّل الغيتا. فعندما تقيم المحبة عميقاً في قلبك، كما كان يقول سري كريشنا لأرجونا، يتلاشى كل تعلق أناني، ويتلاشى معه كل إحباط، وكل اضطراب، وكل يأس. فيسأل أرجونا بحماس: "كيف لي أن أُميّز مثل هذا الشخص عندما ألتقي به؟ ما هي سمات الإنسان الذي يعيش دوماً في الحكمة، رابط الجأش تماماً؟ أخبرني، كيف يتحدث، وكيف يتصرف عندما يُدقّ به خطر؟".

يجيب كريشنا:

يعيش في قلب الحكمة

من يرى نفسه في الكلّ، والكلّ فيه.

من استنفذت محبته لإله المحبة كل رغبة أنانية
وكل شهوة حسية تعذب القلب.
لا تهيجه بلية، ولا شوق للذة.
يعيش متحرراً من كل الشهوات والمخاوف.
منعتقاً من قيود التعلقات الأنانية.
لا ينيه عجباً جراء حظ سعيد،
ولا يقنط جراء حظ عاثر.
ذاك هو الرائي...

عندما تواصل التفكير في المواضيع الحسية،
يحضر التعلق.
التعلق ينجب الرغبة،
وشهوة التملك، التي، إن أعيقت،
تشتعل متحولة إلى غضب.
الغضب يُعتم على الحكم السديد،
ويسلب منك القدرة على التعلم من أخطاء الماضي.
وتفقد ملكة التمييز،
وتكون حياتك قحط مطلق.

لكن عندما تنتقل وسط عالم الحواس
متحرراً من التعلق والبغض على حد سواء،

يحضر السلام خاتماً كل الأحزان،
وتعيش في حكمة الذات.

العقل المشتت أبعد ما يكون عن الحكمة؛
كيف يمكنه أن يتأمل؟ كيف يكون في حالة سلام؟
عندما تعرف أنك غير آمن، أتى لك أن تعرف الفرح؟
عندما تدع عقلك يتبع النداء الغاوي للأحاسيس،
ستجرفك بعيداً عن الحكم الصائب
كما يجرف الإعصار مركباً عن مساره المرسوم
إلى أعماق المحيط...

حر إلى الأبد
من فرّ من قفص الأنويّة؛ من الأنا والتملك،
لكي يتحد مع ربّ المحبة.
إنها الحالة الأسمى،
إن بلغتها،
ستعبر من الموت إلى الخلود.

توجز هذه الأبيات حياة غاندي. فطوال خمسين عاماً كان يتأمل حولها
صباح مساءً، ويكرس كامل جهده لترجمتها، بمعونة الترتيلة، في عمله
اليومي. كانت هذه الأبيات المفتاح إلى تحوّله الذاتي.

غاندي الإنسان

كان لويس فيشر، وهو صحفي أمريكي، يتابع بدقة حملات غاندي في الهند لسنوات عدة، وما انفكّ يتساءل عن الحكمة العملية لهذا الرجل الضئيل البنية الذي كان يطبق بنجاح منقطع النظير قوانين المحبة على التحديات الهائلة لسياسة القوة. وحين سنحت له الفرصة أخيراً لزيارة غاندي في منزله، لم يجد ذلك السياسي الذي أسر قلبه، وإنما كان غاندي الإنسان: حيويته الدائبة، دفء مشاعره، قوته الرقيقة الثابتة، حسّ الدعابة الذي لا يفارقه، وفرحه العارم. كان هناك رجل بلا ممتلكات خاصة ماعدا غنى تجربته الداخلية؛ رجل بدا أنه يعاني من نكبات ونكسات بلا نهاية، لكنه لم يفقد قط مرونته ومزاجه اللطيف؛ رجل لم يكن لديه سوى ستة أو سبعة كتب على طاولة مكتبه، لكنه كان مفعماً بالحكمة العملية.

أمضى فيشر أسبوعاً برفقة غاندي، يلقاه كل يوم، يمشي معه، يشاركه وجباته، مفتوناً، كحال المئات من الزوار الآخرين، بما أسماه "معجزة الشخصية". وعندما غادر، كان محملاً بإحساس راسخ بأن تجارب غاندي الأكثر أهمية لم تكن في ميدان السياسة على الإطلاق، بل في فن العيش على نحو هادف في عالم يعجّ بالصراعات العنيفة والتغيرات المتلاحقة.

كتب المتصوّف الألماني القروسطي مايستر إكهارت يقول: "على الناس أن يفكروا على نحو أقل بما ينبغي عليهم عمله، وأكثر بما ينبغي عليهم أن يكونوا. فإذا كانت طرائق معيشتهم صالحة، ستتألق أعمالهم وضاءاً بالبهجة". كان غاندي يفكر فقط بما يجب عليه أن يكون، وكل ما فعله كان

يشعّ بالجمال. وبالنسبة لأولئك الذين التقوا به، حتى الذين كانوا يُعدّون من الخصوم، كان الفنان الأسمى الذي يخلق من أدق تفاصيل في حياته عملاً فنياً.

"حياتي كلّ لا يتجزأ، وكافة نشاطاتي تتلاقى مع بعضها البعض؛ ولها جميعاً ذات المنبع: محبتي التي لا ترتوي للبشرية".

إنها زوجته كاستورباي، كما يقرّ غاندي في ما بعد، التي علمته كيف يحب. كانت تريه، بمثاله الشخصي، السبيل إلى اجتثاث الغضب والمشاحنة اللذين كانا يؤديان إلى تآكل حياتهما الزوجية: لم تكن تقابل أذاه بالمثل أو تأجج ما ينشب بينهما من خلاف، بل تسعى بدأب إلى مساندته ومعاملته بصبر وأناة أثناء هيجانه أو ارتكابه أخطاء، مبقية عينيها دوماً على ما هو صالح فيه وحائّة إياه بصمت على التصرف معها باحترام. وبدأ غاندي بالتدريج في إدراك أنها تمارس يومياً ما كان هو نفسه معجباً به كمثال نظري. فاتخذها قدوة له، وأصبح كل منهما معلماً للآخر، إذ تعلم غاندي صبر كاستورباي وألهمها بحماسة المتقد في المقابل. كان انضباطاً يتطلب جهداً وصرامة ووقتاً، وقد اعتاد غاندي على القول أنه يتطلب "صبر إنسان يحاول إفراغ البحر بمصاصة، قطرة قطرة". لكن في كل مرة كانا يتغلبان فيها على عائق بينهما، كانا يجدان أنهما ليس فقط قادران على محبة بعضهما البعض أكثر، بل أن لديهما مزيداً من المحبة والصبر لكل الناس أيضاً. وهكذا، في الوقت الذي كان غاندي قد تعلم إغداق هذه المحبة حتى على أعدائه، كانت كاستورباي أيضاً في السجن، والنساء الأخريات منضويات تحت قيادتها.

لم يكن غاندي يتوقع من أولئك الذين يأتون إليه أن يحققوا هذا التحول على الفور، أو أن يقبلوا بين عشية وضحاها تشريط ملايين السنين من التطور ويحبوا أعداءهم أكثر مما يحبوا أنفسهم. فقد أخفق هو نفسه مرات لا تحصى في مساعيه للوصول إلى تلك الحالة السامية. كان يخاطبهم بالقول: "إذا لم يكن بوسع أحدكم أن يحب الملك جورج، مثلاً، أو السير ونستون تشرشل، فليبدأ بمحبة زوجته (أو هي بمحبة زوجها) أو أطفاله. حاول أن تضع سعادتهم في رأس قائمة كل لحظة في حياتك، وسعادتك في آخرها، ودع دائرة محبتك تتوسع من هذه النقطة. ومادمت تبذل أقصى جهدك، لا يمكن أن يكون هناك شك بالفشل". هذا هو الانضباط الذي بنى غاندي بواسطته قدرته من الساتياغراها. إنه الحافز الأعمق الذي يمكن للكائن البشري الإنصات إليه، لأنه يجيب مباشرة على أعمق حاجة بشرية: الحاجة إلى المحبة.

"المحبة غير متطلبّة مطلقاً؛ إنها معطاءة بلا حساب. المحبة تعاني دوماً، بلا امتعاض أو سعي إلى الانتقام بتاتا".

"علينا ألا نقصر الحقيقة واللاعنف على الممارسة الفردية المحضة، بل نجعلهما ممارسة للمجموعات والمجتمعات المحلية والأمم. ذلك هو حلمي على أية حال. سأعيش وأموت ساعياً إلى تحقيقه. ويساعدني إيماني على اكتشاف حقائق جديدة كل يوم.

"أهمسا هي صفة مميزة للروح، ولذا، يجب ممارستها في كل شؤون الحياة. إن لم تُمارس في كل المجالات، لن يكون لها قيمة عملية".

لقد أنشأ غاندي في مجرى حياته عدداً من المجتمعات المحلية أو الأشرمات Ashrams، حيث يأتي إليها رجال ونساء وأطفال من مختلف المشارب والجنسيات للتعلم من نمودجه اليومي كيف يجعلون من المحبة واللاعنف أساساً لحيواتهم. وفي المراحل المبكرة للحركة في الهند، كان الناس يأتون إليه في أشرم سابارماتي Sabarmati بغية التدرّب من معامل النسيج المنعزلة في ضواحي أحمدأباد. كان سابارماتي بيته طوال خمسين عاماً ومنه أطلق الحركة من أجل القماش المنسوج في البيت، وكذلك ساتياغراها الملح في العام 1930. وأخيراً، عندما اقتضى نشاطه الانتقال إلى مكان آخر، تخلى غاندي عن أشرم سابارماتي ليكون في خدمة الهاريجان وانتقل بعدها للعيش في قرية وسط الهند ليجعل بيته بين الناس هناك. كان الأشرم الذي توسع حوله يدعى سيفاغرام Sevagram، أي "قرية الخدمات".

لقد اختار غاندي بعناية موقع سيفاغرام على بعد سبعة أميال من الحياة المدنية، في جزء من الهند شديد الحرارة. كان معظم الهنود مضطرين للعيش في هذا الطقس، ولهذا السبب فضّل غاندي إقامة أشرمه هناك بدلاً من أن يقيم على تلة في الهيمالايا الباردة أو في بقعة خصيبة على ضفاف نهر الغانج. ربما كان يأمل بالعزلة، لكن في غضون سنوات قليلة كان هناك أفواج من الناس يتوافدون إلى الأشرم الذي مهّدوا الطريق إليه بأقدامهم. كان غاندي يتلقى الكثير من الرسائل البريدية مما أجبر الحكومة على افتتاح مكتب للبريد هناك. كما كانت يرده سيل من البرقيات مما استدعى إنشاء مركز برق. وأصبح سيفاغرام خلية نحل نابضة بالنشاط، حيث كان بوسع العالم أجمع أن يرى ما يعنيه القيام بأدق الأعمال اليومية بمحبة.

"يجب أن تراقب حياتي، كيف أعيش، كيف أتناول طعامي، كيف أجلس، كيف أتحدث، كيف أتصرف عموماً. المجموع الحاصل لكل تلك التفاصيل هو ديانتي".

كان يوم غاندي يبدأ باكراً جداً، حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً، لكي يستغل برودة الصباح الهندي وهدوئه. ففي هذا الوقت من اليوم يكون العقل في أقصى حالات السلام الطبيعية، وحتى في أشد الأزمات الوطنية توتراً، سواء كان في لندن أم في قطار أم في زنزانه في أحد "فنادق جلالتة"، لم يكف غاندي عن استغلال هذا الوقت من أجل التأمل. لقد كان هو الجزء الجوهرى في يومه، أكثر بكثير من أوقات وجباته؛ فكل صباح يحرر فيضاً إضافياً من الطاقة يجدد كل خلية من خلايا جسده. وطوال بقية اليوم، سيوظف تلك الساعات الصباحية الباكرة في الصبر والشجاعة والمرونة، وفي حس دعابة لا يمكن كبحه.

وما أن ينتهي غاندي من تأمله حتى كان يغوص في الشؤون اليومية. كان يكرّس كل لحظة للآخرين، بدءاً من سيل الزوار المتدفق من كافة أنحاء العالم لأسباب شتى: لإجراء مقابلة لصحيفة نيويورك تايمز، لتسوية بعض القضايا المتعلقة بحق الهاريجان في التصويت، لمناقشة وجهة نظره بخصوص تحديد النسل، أو طلباً للمساعدة على تأديب طفل صعب المراس. وخلف أولئك الذين كانوا يطلبون مقابلات كانت تقف الحشود الصامتة التي جاءت فقط لمشاهدة "رجل سيفاغرام الفقير النحيل" الذي جعل من أدق تفصيل في حياته لوحة فرح تستحق المشاهدة. ففي مكان إقامة غاندي كان الناس يشعرون في الحال أنهم في بيوتهم: وكأنما خلّقوا في سيفاغرام، وأن

العائلة الهائلة العدد التي تبناها غاندي هي عائلتهم. كان غاندي يوليهم جميعاً الاهتمام نفسه، مُفسحاً بطريقة ما لكل منهم وقتاً في برنامجه اليومي المزدحم، متحدثاً إليهم في نزهته الصباحية أو على مائدة الإفطار أو حول دولاب الغزل. لم يكن لديه أدنى خصوصية؛ فكل ما كان يفعله كان تحت أنظار غرباء، وبالتالي كانت حياته شفافة على نحو جميل. وذات مرة، كتبت له مساعدته ماري بار معترضة عن تطفلها عليه بلا قصد في اليوم السابق، تعكير صفو عزلته وهدوئه لبضع لحظات، كما اعتقدت. فكتب لها غاندي مجيباً: "لم تعكري صفو عزلتي. عزلتي تُستكفى وسط الكثرة".

وسط كل تلك الفوضى الظاهرة حافظ غاندي على النظام عن طريق الاهتمام الدقيق بالتفاصيل والوقت. كان حريصاً على كل لحظة، وينتظر من جميع زواره، بمن فيهم الوزراء البريطانيين ذوي الشأن، أن يجاروا ما تقتضيه معاييره. كتب يقول: "يجب ألا تهدر حبة أرز أو قصاصة ورق، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كل لحظة من وقتك. إنها ليست ملكنا. إنها تخص الأمة، ونحن أوصياء من أجل الاستفادة منها".

في تلك السنوات المتسمة بالاضطراب، غالباً ما كانت الشؤون اليومية مشحونة بالضغط والتوتر، فكان من المألوف رؤية جواهرلال نهرو أو أحد الزعماء السياسيين الهنود الكبار في سيفاغرام قادماً من أقاصي القارة، مُتقللاً بهموم ذات أثر على مئات الملايين من البشر. ولم تكن تمض سوى بضعة دقائق عادة حتى تُسمع ضحكاتهم المكتومة لدعابة من دعابات غاندي، وعندما يغادرون، وبخيمياء ما من شخصيته، تكون السكينة قد حلت في نفوسهم، مفعمين بحماسة وإلهام جديدين، وعلى أهبة الاستعداد للتعامل مع

مشكلاتهم بمنظور واضح وعزيمة أشد. كانت الأزمات الوطنية الكبرى تتوضح في النموذج المتواصل للمشاكل والمآسي المحلية: انتشار مرض بين الماشية، طفل يحتضر بسبب ذات الرئة، رجل من قرية مجاورة يسعى للحصول على إذن من غاندي من أجل هجر زوجته. وخلف كل هذه القضايا كانت تخيم معضلة الفقراء الهنود الكبرى، الذين حمل غاندي بمفرده المسؤولية اليومية لقيادتهم نحو الاكتفاء الذاتي والحكم الذاتي. كان يتقل عبر هذه المحن برشاقة راقص، جذل ودمث دوماً، رائق وعميق مثل بحر السلام الموصوف في بهفاد غيتا، الذي تصب فيه معظم الأنهر الهائجة ويبقى هادئاً.

هذا ما كان عليه الحال مع عائلته في الأشم حيث كان جماله يشع ببهاء. كانت مجموعة غريبة: مئات من الرجال والنساء والأطفال من كل أصقاع الأرض، من مختلف المنابت والميول إلى حد جعل سردار فالابهاي باتل، رفيق غاندي منذ الأيام البكرة للساتياغراها الهندية، يشير إليها بدعابة على أنها "حديقة حيوانات الأشم". وحيثما كان يحلّ غاندي، كان يخلب لبّ رجال ونساء حرّرت محبتهم له ذخائر هائلة من الولاء والشجاعة والخدمة الغيرية مما حوّل حياتهم كلياً. حتى في جنوب أفريقيا، بينما كان مفهوم "العائلة" يتوسع، انضم مثل هؤلاء الناس إليه في الأعمال المنزلية وكرّسوا أنفسهم بالكامل لأسلوبه في الحياة. كثير منهم كانوا من النساء اللواتي استجبن بإخلاص إلى فهمه الفذ لقوتهن الصبورة الحازمة الهادئة وطبعهن الإيثاري وقدرتهن على الغفران. كان يقول عنهن بإعجاب: "إذا كان اللاعنّف هو قانون وجودنا، فالمستقبل رهن بالنساء". لقد ضمّن جميعاً في عائلته،

وبما أنه كان قد تعلم أن ينشر محبته لكاستورباي وأطفاله إلى كل الآخرين أيضاً، كان ثمة متسع دوماً على ما يبدو لأحد آخر. كان العالم أجمع عائلته. فعندما سأل أحد المرسلين الصحفيين، ذات مرة، كاستورباي كم طفلاً لديها أجابت مازحة: "لدي أربعة، لكن بابو، زوجي، لديه أربع مئة مليون".

ما من سمة أكثر جمالاً وألقاً في طبع غاندي من علاقته المحبّة مع كل فرد من مئات الناس الذين كانوا جزءاً من عائلته في الأشم. كان يولي أهمية لكل تفصيل من تفاصيل حيواتهم. ومع أن متطلباته من المقربين منه كانت كثيرة، إلا أن معاملته لهم كانت مفعمة بالمحبة والدعابة واللباقة. كانت علاقته مع كل شخص منهم مباشرة. كان مدركاً لاحتياجات الآخرين حتى في أدق التفاصيل، وغالباً ما كان يغمهم بالرعاية والسهر على صحتهم رغم ازدحام جدول أعماله اليومي. لا يفوته تفصيل في حياة الأشم مهما صغر. وكان يحب القيام بجولاته بعد الظهر، فيلعب مع الأطفال ويمزحهم ويتفقد سير العمل في المطبخ. وكان يخصّ المرضى في الأشم بمحبة مميزة؛ يصدق عليهم كل شغف طفولته في التمريض، ويزورهم حاملاً لكل مريض في مشفى سيفاغرام هدية صغيرة معبّرة، فكانت البهجة تعمّ المكان عندما يتواجد غاندي. وفي وصفه لإحدى زيارات غاندي، يقول لويس فيشر أنه استيقظ صباح أحد الأيام على صوت امرأة في الغرفة المجاورة في الأشم تغني مثل مراهقة. وعندما خرجت إلى الشرفة سألتها عن سبب غنائها، فأجابت: "لأنني سعيدة".

- "ولِمَ أنت سعيدة؟"

ابتسمت وهي تقول: "نحن سعداء لأننا بالقرب من بابو".

غالباً ما كان العشاء في سيفاغرام، بالنسبة للأغرار، مليئاً بالمفاجآت. كان غاندي قليل الاهتمام بطيب الطعام؛ فبالنسبة له، كان الجسد مجرد آلة مكرسة للخدمة، وكان يلقيه الطعام كمن يزود محركاً بالوقود. وكان يقول ناصحاً: "تناول من الطعام ما تحتاجه فحسب. عندما تكون جائعاً فقط، و فقط عندما تكون قد أسديت خدمة للآخرين ولو كانت صغيرة". منذ سنوات دراسته في لندن كان يجرب توليفات من كل أنواع الخضار المتوافرة بتجاهل مضحك لجمالية أصناف الطعام. كانت الحصىلة أحياناً في غاية الغرابة، يشاركه فيها ضيف عزيز عليه كان قد دعاه لتذوق آخر طبق حساء أو صلصة ابتدعه، غني بفيتامينات غامضة المصدر وبمرارة العلقم أحياناً. كان كافياً، بالنسبة لغاندي، أن يكون الطبق مُغذِّ؛ فذلك يجعل مذاقه طيباً أيضاً، حسب علمه.

كانت الوجبات في الأشرم تتسم بإلفة طقس عائلي. وكان غاندي على قناعة بأن الوجبة لكي تكون مفيدة للصحة ينبغي طهوها وتناولها بمحبة، فكان يحيط من حوله بجو من الحيوية والمودة والدعابة. كان مُقلِّاً في الكلام، لكنه يبدي كامل تركيزه على كل ما يستحق الاهتمام. حتى في القضايا البسيطة، كان بنموذج الشخصي مثلاً لعائلته في الحفاظ على أقصى الانتباه لما بين أيديهم من عمل، إلى حد أنه لم يكن بإمكان غضب أو خوف أن يزرعهم في أعتى الحملات.

بعد وجبة العشاء، كان يُسدل ستار على كل القضايا الوطنية، ويجتمع حشد بما يبدو وكأنه موكب لمرافقة غاندي في مسيره المسائي. في ذلك الوقت تكون قد خفت قليلاً حدة الشمس اللاهبة في الهند الوسطى، وستكون

بركة عظيمة بالنسبة لغاندي أن يقضي هذه الساعة من اليوم مع نفسه. لكنه، عوضاً عن ذلك، كان يفضل إعطاء المزيد من الوقت لأولئك الذين يرغبون في التحدث إليه أو يوجهون إليه بعض الأسئلة، وعندما يكونوا صامتين، كان يستثير جواً من الضحك مع أطفال الأشرم. ورغم أنه كان في السبعينيات من عمره، كانت خطواته سريعة جداً، وبعد فترة قصيرة كان الموكب يتقلص حيث يتساقط الناس تعباً. كان في غاية الرشاقة؛ بالكاد تلامس قدماه الأرض ويبدو وكأنه يطير.

بعد المسير المسائي، كانت تُقام الصلاة تحت قبة السماء الإستوائية. فمع مغيب الشمس، كان يتجمع مئات الناس حاملين المصابيح لسماع حديث غاندي. كانت الضجة تعلو، والحشد يتحرك كموج البحر. عندما يأتي غاندي، كان يبدو صغيراً وهزلياً، لكن حضوره كان طاغياً. كان يرفع يده بجهد كإشارة فيهدأ الجميع، وتشخص كل الأعين صوب ذلك الرجل الضئيل الجالس على المنصة.

كان صوته لطيفاً ورخيماً؛ يبدو ناعماً لكنه يبلغ مدى بعيداً. في الدقائق القليلة الأولى، كان غاندي يتطرق إلى أحوال الجمهور واحتياجاته. كانت الكلمات تخرج من بين شفثيه بطيئة ودقيقة؛ تماماً مثل طفل يرى أفكاره تتشكل وتتطور وتُصاغ بوضوح في خطاب بسيط لكنه مفعم بالقوة. كان غاندي يتقلد جسده كعباءة، ورغم ضعف ذلك الجسد، إذ لم يكن يزن أكثر من خمسة وأربعين كيلو غراماً، كان يعطي انطباعاً بالجلد والقوة الهائلة، قوة الروح التي لا تُضاهى. ففي الغسق الذي يلف الحشد بظلاله، كان يبدو أن

قروناً من السنين تُطوى لكي تتكشف ومضة من الرحيم بوذا وهو يمنح سرّ اللاعنف إلى عالم ممزق بالنزاعات منذ أكثر من 2500 سنة.

كانت تُتلى في اجتماعات الصلاة الكتب المقدسة لكل الديانات، مثل القرآن والعظة على الجبل، لكن بهُغفاد غيتا هي التي كانت كان يستمد منها غاندي أعمق الإلهام والهدى. كان مهاديف ديساي يجلس بالقرب من غاندي ويبدأ في قراءة الفصل الثاني من الغيتا الذي يصف الإنسان الكامل. لقد عمل غاندي طوال حياته لكي يترجم هذه المُثل العليا في حياته اليومية. ومع توالي الأبيات الشعرية يمكنك رؤية غاندي مستغرقاً بالكامل، تغمر السكينة عقله والانعتاق روحه الجبارة. كان تركيزه تاماً إلى حد أنك لا تعود تسمع الفصل الثاني من الغيتا، بل تراه مجسداً، شاهداً بنفسك على التحول الذي يصفه.

حر إلى الأبد

من فرّ من قفص الأنويّة؛ من الأنا والتملك،

لكي يتحد مع ربّ المحبة.

إنها الحالة الأسمى،

إن بلغتها،

ستعبر من الموت إلى الخلود.

"فن الموت ينتج عن فن العيش كنتيجة لازمة".

ذات مساء، من مثل تلك المساءات، حدثت المأساة الختامية. كان غاندي

في دلهي، ممضياً كل لحظة يقظة من لحظات يومه في التماس أخير للوحدة

بين الهندوس والمسلمين. وعندما حان وقت اجتماع الصلاة، اتجه إلى هناك

بخفة، كعادته دوماً، متكئاً على أكتاف فتاتين من فتيات الأشرم. كان قد تجمع حشد ضخم لسماعه. كان يتجه إلى المنصة وسط ذلك الحشد وهو يضمّ راحتي يديه أمامه محبباً. وفجأة، اعترض طريقه شاب أعمت الكراهية قلبه، وحيا غاندي بنفس الطريقة، ثم سدّد مسدساً إلى قلبه وأطلق النار. في تلك اللحظة بدت عظمة هذا الرجل النحيل المفعم بالمحبة؛ لا شيء سوى الترتيلة التي خرجت عميقاً من داخله إلى شفثتيه: راما، راما، راما. وكانت تعني: أسامحك، أحبك، أباركك.

الكائن البشري قوة روحية هائلة بالكاد يحتويها شكل فيزيائي. عندما تتصهر معاً جميع آماله ورجباته وحوافزه وإرادته وتصبح كلّ واحد، تتحرر هذه القوة في حياته بالذات، ولا يمكن حتى لفناء جسده أن يحبسها ثانية. لقد جعل غاندي من نفسه قوة اللاعنف. إنه قوة لا يمكن أن تخدم، قوة تنهض من سباتها مجدداً حيثما تحول شخص (أو مجتمع محلي، أو أمة) صوب اللاعنف بكل قوته وكل إرادته.

ذات مرة، بينما كان القطار الذي يستقله غاندي يتحرك ببطء مغادراً المحطة، ركض إليه أحد المراسلين الصحفيين وسأله وهو منقطع الأنفاس عن الرسالة التي يود إيصالها إلى شعبه. كان جواب غاندي سريعاً، إذ خرش على قطعة صغيرة من الورق: "حياتي هي رسالتي". إنها رسالة لا تتطلب مرحلة فسيحة من السياسة العالمية، بل يمكن أن تُوضع في الممارسة هنا والآن، في لجة الحياة اليومية.

"لا أملك تعاليم جديدة أقدمها للعالم. الحقيقة واللاعنف قديمان قدم التلال. كل ما قمت به هو محاولة اختبارهما على أوسع مستوى استطعت

العمل عليه. وفي خضم هذا العمل، أخطأت أحياناً وتعلمت من أخطائي. ولذا أصبحت الحياة ومشاكلها بالنسبة لي تجارب تُضاف إلى تجارب في ممارسة الحقيقة واللاعنف..."

"حسناً، لنقل أن كل فلسفتي، إن كان لي أن أدعوها بهذا الاسم المفخّم، مُتضمّنة في ما قد قلته. لكن لا يمكن تسميتها "عقيدة غاندية" Gandhism؛ ليست فيها شيء من العقيدة. ولا تحتاج إلى مؤلفات أو دعاية تروّج لها. لقد سبقني الأولون، لكنني حثت الخطى أسرع من أيّما وقت مضى إلى الموقع الذي لا يمكن فيه أن يُضحّى بالحقيقة من أجل أيّ كان ومهما كان. وبوسع أولئك الذين يؤمنون بالحقائق البسيطة التي عرضتها أن يشيعوها فقط عن طريق معاشتها".

"لا ينتابني أدنى شك في قدرة أي رجل أو امرأة على إنجاز ما أنجزته، إن هو (أو هي) بذل الجهد ذاته ورعى الأمل والإيمان ذاتهما".

ملحق: كيف يفعل اللاعنف فعله (تيموثي فلنדרز)

في الصفحات السابقة، سعى إكناث إيسوران جاهداً إلى تسليط الضوء على التطور الشخصي لغاندي بوصفه زعيماً روحياً ملهماً وقائداً سياسياً مُجدِّداً. وهنا، أبغي أن أمضي أعمق في التركيز على العناصر الأساسية الساتياغراها، كما وضحاها غاندي، لنرى كيف يمكن تطبيق هذا النهج على مشكلاتنا المعاصرة.

جرت العادة على التفكير بالساتياغراها على أنها تقنية للعمل الاجتماعي استخدمها غاندي من أجل تحرير الهند من الحكم البريطاني. ويصح هذا الفهم بقدر ما يسفر عن نتائج، لكنه ينتقص مما قصده غاندي. فالساتياغراها فعلياً هي نهج لمقاربة النزاعات واستنباط الحلول اللاعنفية لها، على شتى مستويات التفاعل الإنساني. ويبدأ استخدامها فردياً وفي البيت، ويمتد إلى المجتمع المحلي والمؤسسات ومن ثم عموم البلاد. فحيثما نشب صراع، مستتراً كان أم عنيفاً، تتجلى أهمية الساتياغراها.

لم تكن الساتياغراها، كما طورها غاندي، مجرد تقنية أو نظرية، وإنما نهج حياة. كل أفكار غاندي تحمل هذه البصمة، إذ أن هذه الأفكار لا تحقق كوامنها إلا في تطبيقها، "فقط في معاشتها". لم يبتكر غاندي الساتياغراها، وإنما اكتشفها؛ فهي، كما كان يقول، "قديمة قَدَم التلال". لقد عيّن غاندي مبادئ الساتياغراها وطبقها على أوسع الصُّعد الممكنة لإظهار نجاعتها. لكن طوال الفترة التي كان يعمل فيها على ذلك، كان من الجلي أن ممارسة الساتياغراها تُوجب البدء بالفرد، "في البيت".

بينما كان ج. د. بيرلا، أحد الأثرياء الهنود الداعمين لغاندي، متجهاً بصحبة غاندي إلى مكان انعقاد مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن عام 1931، تساءل إن كان غاندي قد حضرَ الخطاب الذي عليه إلقاءه ذلك الصباح. قال بيرلا: "أعتقد أنك قد فكرت في ما تبغي قوله".

أجاب غاندي: "ذهني صفحة بيضاء بالمثل، لكن قد يعينني الله على تجميع أفكارٍ في الوقت المناسب. فبرغم كل شيء، علينا التحدث كأنا بسطاء. ليست لدي الرغبة أن أبدو فائق الذكاء. فمثل أي ريفي بسيط، كل ما علي قوله هو: نحن نريد الاستقلال".

لقد طور غاندي الساتياغراها مع الناس "البسطاء" التفكير، وبالتالي ستكون سهلة المنال بالنسبة للإنسان العادي. فالساتياغراها لا تتطلب شهادة عليا ولا تدريباً خاصاً لكونها موجودة في الناموس الأكثر أصالة للطبيعة البشرية: المحبة. وكان غاندي يؤكد على أننا جميعاً نمتلك القدرة على الساتياغراها في دواخلنا، لكننا لا نعرف كيف نحرر قوتها التي "لا تُقهر".

"سأضع بين يديك تعويذة. فحينما تحاصركَ الشكوك أو تنتضخ الذات لديك، جرب الوسيلة التالية: تذكر وجه أكثر الناس عوزاً وبؤساً كنت قد شاهدته وسلّ نفسك إن كانت الخطوة التي تعتمزم القيام بها ستعود بالفائدة على ذلك الشخص. هل ستمكّنه من كسب شيء ما؟ هل ستجدد تحكمه بحياته ومصيره؟ بعبارة أخرى، هل سيؤدي ذلك إلى تمكّن الملايين من أبناء بلدنا الجياع مادياً وروحياً من التحرر؟ عندها، ستأخذ شكوكك ومشاعرك الأنانية بالتلاشي".

تحمل الساتياغراها الكثير من المعاني تبعاً لاختلاف الأشخاص، وغاندي نفسه يستخدم المصطلح بالمعنى الأوسع. عندما تُردّ الساتياغراها إلى عناصرها الأساسية، لا تعود حركة من أجل الاستقلال ولا تقنية للعمل السياسي، مع أنها، في الواقع، تُقارب هذين المعنيين في أوقات معينة. فالساتياغراها، ببساطة تامة، هي قوة روحية - مصدر طاقة فعال وقابل للتطبيق يصلح للأفراد جميعاً، وإن كان قلة منهم واعية له.

صاغ غاندي برويةً مصطلح "ساتياغراها" في جنوب أفريقيا في العام 1908. كانت تحول في ذهنه فكرة واضحة تماماً عن قوة ما، فجدّ في البحث عن عبارة مكافئة تُعرّفها بدقة، وتحزّرها خصوصاً من الارتباط بمصطلح "المقاومة السلبية" Passive Resistance. وانطلاقاً من تبيّنه للصراع في جنوب أفريقيا، يُعرّف غاندي الساتياغراها على النحو التالي: "الحقيقة (satya) تتضمن المحبة، والثبات (agraha) مرادف للقوة. ولذا شرعت في تسمية الحركة الهندية "ساتياغراها" (Satyagraha)؛ وأعني بذلك: القوة التي تولد من الحقيقة والمحبة أو اللاعنف...".

مصطلح "ساتياغراها" مُعرّف بذاته، ويقبض على جوهر فكرة غاندي، بدءاً من إدراكها في جنوب أفريقيا في منعطف القرن وصولاً إلى الصدمات الحاسمة مع الحكم البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية. في غضون ذلك الوقت، اتخذت الساتياغراها أشكالاً عدة: مسيرات، أنشطة اقتصادية، صوم، مقاطعة اقتصادية، عصيان مدني. بيد أن الجوهر، بالنسبة لغاندي، بقي دوماً وعلى نحو جلي قوة متولّدة من البحث عن الحقيقة والولاء الثابت للنهج اللاعنفي.

ساتيا، الحقيقة، تعني حرفياً "ذاك الموجود": الذي لا يتغير البتة، بل يبقى ذي صدقية في كل الأزمان وتحت كل الظروف. وبالنسبة لغاندي، كان هذا معادلاً لله: "الحقيقة هي الله"، كما قال، لكنه أضاف من قبيل الاحتراس: "الله وحده يعرف الحقيقة المطلقة". ومن جانب آخر، لا يسعنا نحن سوى تعقّب حقيقة نسبية. لكن غاندي يعتقد أن بحثنا عن الحقيقة لن يؤدي بنا إلى إيذاء أحد، إن كان هذا البحث طاهراً ومجرداً من الأغراض الشخصية.

"... ما قد يبدو حقيقة بالنسبة لشخص سيبدو على الغالب زيفاً بالنسبة لشخص آخر. لكن هذا لا يدعو إلى قلق الباحث عن الحقيقة. فحيثما يكون هناك مسعى نزيهاً، سيُمكن إدراك أن ما تتبدى على أنها حقائق مختلفة هي أشبه ما تكون بأوراق الشجرة ذاتها المختلفة ظاهرياً والتي لا تحصى... الحقيقة هي الدلالة الصائبة على الله. لذا، لا يمكن تخطئة أي إنسان يتبع الحقيقة وفقاً لفلسفته في الحياة؛ إنه واجبه الذي عليه القيام به. وبالتالي، إذا كان ثمة خطأ من جانب من يتبع الحقيقة، فسوف يُصحح الخطأ تلقائياً. ويقتضي التماس الحقيقة جهداً دؤوباً - مكابدة ذاتية تمتد أحياناً إلى حين الرحيل عن هذا العالم. ولا يمكن أن يكون هناك متسع في هذا المسعى لذرة من المصلحة الذاتية. ففي مثل هذا البحث اللأناني عن الحقيقة لن يضلّ أحد ما سبيله طويلاً...".

التعريف المعجمي لكلمة (agraha) يفيد بمعنى "الإصرار على"، "الميل الحازم نحو"، "العناد". ومن الواضح أن غاندي كان يختار مصطلحاته بعناية؛ فالساتياغراها كانت بالنسبة له تشبّث راسخ، بل وعنيد، بالحقيقة،

مهما كانت الحالة. وتضفي "الإرادة القاهرة" للمرء مزيداً من القوة على المسعى.

بيد أن الحقيقة لوحدها ليست كافية. وكان غاندي يدرك كنه الطبيعة البشرية ويدرك أن الحقيقة، بذاتها، قد تغدو "لا أخلاقية": "السبب هو أن كل شخص في اللحظة الراهنة يدعي أنه يعمل وفقاً لما يمليه عليه الضمير دون التقيد بأيّة ضوابط مهما كان مقدار الضلال الذي يُنقل إلى عالم مُنخَبَط". فما قد يجعل البحث من أجل الحقيقة غير طاهر، "لا أخلاقي"، هو تماهيه مع "المصلحة الذاتية". وكان ترياق غاندي الشافي من الضلال هو التخفيض الممنهج للتمركز حول الذات، والذي وضحه بعبارات لا لبس فيها في معتقد مبسّط: "خفّض نفسك إلى الصفر". هذا التخفيض للهوى الأناني هو المبدأ الذي أشار إليه آنفاً، ومن دونه يمكن للحقيقة أن تقضي إلى الغرور والغطرسة، بل وإلى الاستبداد حتى.

"سيأتي زمن يصبح فيه الفرد تام القوة وتصبح تأثيرات أعماله كلية الشيع. سيكون هذا عندما يخفّض الفرد نفسه إلى نقطة الصفر".

الهوى الأناني يعوق تحرير القوة الداخلية الهائلة للساتياغراها، والتخلص منه يحررها. ويمكن مقارنة هذه القوة بالنبوغ الذي يشير إليه الفنانون بقولهم: "لقد حوّلتُ مساري". وقد دعاها غاندي بـ "قوة الروح"، إذ يقول: "الساتياغراها هي قوة الروح الطاهرة والبسيطة".

لا يقصد غاندي بقوله هذا أي مجاز، بل القوة بالمعنى الحرفي. كان يعتقد، ومسيرة حياته شاهدة على ذلك، أن لدى كل فرد، رجلاً كان أم امرأة، في شرط معين قوة هائلة متاحة له، و"تصبح تأثيرات أعماله كلية الشيع".

ويصبح "تام القوة" ليس بالتغلب على ما يعترض سبيله بالقوة وإنما بتفكيكها بلا إرغام عنيف. إن تسمية القوة التي يقصدها غاندي بـ "مقاومة سلبية" ينم عن جهل بسلطتها الفاعلة. فهذا يُقارب القول أن الضوء هو "اللاظلمة"، مما يوحي على نحو خاطئ بأن الضوء هو غياب لشيء آخر ويحجب حقيقة أن الضوء هو شكل من أشكال الطاقة استخدم لإنارة المدن حين فهم كما ينبغي. وهذه الحالة تشبه كثيراً الساتياغراها. ثمة قوة هائلة هنا يُعتم عليها الجهل واللغة، والتي يقول عنها غاندي أنها قد توجد حلاً لأكثر المشاكل الإنسانية صعوبة إن فهمت كما ينبغي. وكما يحقق الضوء قوة عظيمة عندما يُكف في الليزر، تصبح قوة الفرد لا تُقاوم عن طريق الانضباط الذاتي، "عندما يخفّض نفسه إلى نقطة الصفر". وقد حاول غاندي أن يبيّن، من خلال حياته الخاصة، أن الكائن البشري المتجرد عن المصلحة الذاتية هو الوسيلة التي تزيح الستار عن هذه الطاقة وتضعها في العمل من أجل حل الصراعات على كل الصعد. لكنه يوضح بدقة أن هذه القوة ليست مقتصرة على قلة مختارة، بل متاحة بشكل كامن للجميع:

"[الساتياغراها] هي قوة قد يستخدمها الأفراد وكذلك المجتمعات. وقد تُستخدم أيضاً في الشؤون السياسية كما في الأمور المنزلية. وقابليتها العالمية للتطبيق هي برهان على ديمومتها وتذليلها للصعاب. كما يمكن أن يستخدمها الرجال والنساء والأطفال على حد سواء".

بالنسبة لغاندي، كانت أهمسا، اللاعنف، هي التعبير الأكثر نبلاً عن الحقيقة، أو، على الأصح، الطريق إلى الحقيقة.

"أهمسا والحقيقة مجدولتان بجديلة واحدة بحيث يستحيل عملياً فصلهما عن بعض. إنهما كوجهي عملة واحدة، أو بالأحرى كقرص معدني مصقول غير ممهور. من بوسعه القول أن هذا هو الوجه وذاك هو القفا؟ ومع ذلك، أهمسا هي الوسيلة؛ والحقيقة هي المنتهى".

أهمسا هي أساس الساتياغراها، "الحد الأدنى المتعذر إنقاصه" الذي تلتزم به الساتياغراها ويُقاس به شأنها.

في المعتقدات التقليدية للهند، ثمة قصة تُروى عن راهب هندوسي عجوز كان يجلس قرب ضفة نهر يردد تلاواته بصمت. وسقط عقرب في النهر من على شجرة غير بعيدة عنه. رأى الراهب المخلوق البائس يصارع المياه فانحنى فوق النهر ومد يده له وأخرجه من الماء وأعادته إلى الشجرة. وبينما كان يقوم بذلك، لدغه العقرب في يده. لم يُعِر الراهب اهتماماً للدغة وعاد إلى جلسته لمواصلة تلاواته. ولم تمضِ برهة حتى سقط العقرب ثانية في الماء. وكما جرى قبلاً، التقطه الراهب من الماء وأعادته إلى الشجرة، لكن العقرب لدغه مرة أخرى. تكرر الحدث عدة مرات، وفي كل مرة كان نصيب الراهب لدغة.

وصدف أن كان أحد القرويين، ممن يجهلون نهج الأتقياء، يجلب الماء من النهر ورأى المشهد كله. لم يستطع تمالك نفسه فاقترب من الراهب وقال له بغیظ:

"أيها الناسك، لقد شاهدتك الآن تتنقذ هذا العقرب الأحمق أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يلدغك. لماذا لا تدع هذا الوغد وشأنه؟".

أجاب الراهب: "يا أخي، هذا الرفيق لا يستطيع كبح جماح نفسه. اللدغ من طبيعته".

قال القروي: "أوافقك الرأي. لكن بما أنك تعرف هذا، لمَ لا تتجنبه؟".

أجاب الراهب: "يا أخي، كما ترى، لا أستطيع تمالك نفسي أيضاً. أنا كائن بشري، ومن طبيعتي أن أنقذ الآخرين".

تُترجم أهمسا عادة بـ "اللاعنف". لكنها، كما رأينا، تعني أكثر من ذلك بكثير. أهمسا مشتقة من جذر الفعل السنسكريتي han، الذي يعني: يقتل. وصيغة hims تعني "راغب في القتل"؛ والبادئة a- نقيدها السلب. وبالتالي تعني أهمسا a-himsa حرفياً "فقدان أية رغبة في القتل"، وهي الفكرة المركزية التي تقوم على أساسها الأخلاقيات الهندوسية واليانية والبوذية. فقد جاء في شريعة مانو Manu Smriti، كتاب القانون العظيم لدى الهندوس، "Ahimsa paramo dharma": أهمسا هي القانون الأسمى. إنها، كما افترض غاندي، جوهر الطبيعة البشرية بالذات".

"اللاعنف هو ناموس وجودنا البشري، في حين أن العنف هو قانون البهائم. فالروح هادمة في الكائن غير العاقل الذي لا يعرف قانوناً سوى قانون القوة الجسدية. أما كرامة الإنسان فتقتضي طاعة قانون أسمى: الإذعان إلى قوة الروح...".

تنطوي كلمة اللاعنف على معنى النفي، شرط سلبي تقريباً، في حين أن المصطلح السنسكريتي Ahimsa يدل على حالة العقل الدينامية التي تتحرر فيها القوة. قال غاندي: "القوة لا تأتي من الطاقة الجسدية، بل من الإرادة التي لا تُقهر". وانطلاقاً من ذلك اكتشف غاندي قوته الخاصة وحضّ

الأخريين على البحث عن قواهم الخاصة انطلاقاً من هذا المبدأ. فهذه القوة الداخلية، الكامنة في أعماق الوعي الإنساني، يمكن رعايتها وتتميتها بالتقيد بتمام أهـمسا. ففي حين أن العنف يكبح هذه الطاقة في الداخل ويعطلها في النتيجة الأخيرة، فإن أهـمسا، المُدرّكة على نحو صائب، لا تقف في وجهها العوائق مهما علت. يكتب غاندي: "باتحاد ساتيا مع أهـمسا بمقدورك إركاع العالم عند قدميك".

عندما يتحدث غاندي عن أهـمسا بوصفها قانوناً، علينا أن نأخذ ذلك حرفياً. ففي الواقع، كانت أهـمسا قانوناً بالنسبة إليه مثل قانون الجاذبية، ويمكن إثباته وسط الشؤون الإنسانية. بل أن غاندي يصف ممارسته لأهـمسا على أنها علماً، وقد قال ذات مرة: "كنت ومازت أمارس النهج اللاعنفي العلمي وإمكانياته لما يزيد عن خمسين عاماً بلا انقطاع". كان غاندي رجلاً بالغ الدقة، شديد العناية بالتفاصيل وصارم، مغرم بالاستشهاد بترنيمة ماراثية Marath [شعب هندي] تقول: "يا رب، امنحني المحبة، امنحني السلام، لكن لا تحرمني من صواب الحكم". كان يثمن التجربة باعتبارها اختباراً للحقيقة، وعلى اللاعنفي الذي كان يسعى إليه، ودعاه "اللاعنف الحقيقي"، أن يعمل وفق التجربة في كل مستويات الشؤون الإنسانية. وأكد: "لقد طبقت [اللاعنف الحقيقي] في كل مجالات الحياة: المنزلية، المؤسسية، الاقتصادية، السياسية. ولم تمرّ بي حالة واحدة فشل فيها". لم يكن غاندي يهتم بما هو دون هذا التطبيق الشامل، لأن أهـمسا انبثقت وعملت في المترابطة ذاتها مثل حياته الدينية والسياسية والشخصية. وحدها الممارسة يمكن أن تحدد

قيمة هذا التطبيق، "عندما يعمل وسط أجواء متعارضة وعلى الرغم منها". وقد نصح غاندي النقاد برصد نتائج تجاربه بدلاً من تحليل نظرياته. "... اللاعنّف ليس فضيلة منعزلة يمارسها الفرد من أجل سلامه وخلصه الأخير، بل قاعدة سلوك للمجتمع... من أجل ممارسة اللاعنّف في المسائل الدنيوية يجب معرفة قيمته الحقيقية. وهذا يعني إحضار السماء إلى الأرض... ولذا أرى أنه من الخطأ قصر استخدام اللاعنّف على قاطني الكهوف [النسّاك] ومن أجل اكتساب فضيلة تتيح احتلال موقع متميز في العالم الآخر. فالفضيلة بمجملها تكفّ عن كونها فضيلة إن أُسْتُخِدِمَتْ بلا غاية في كل سلوك في الحياة".

لقد نمت مشايعة غاندي للاعنّف من خلال تجربته التي كانت السبيل الوحيد لحلّ معضلة الصراع بشكل دائم. كان يدرك أن العنف ليس سوى تظاهر بالحل، ويُنبِت بذور المرارة والعداوة التي سوف تُفَاقِم الوضع سوءاً في نهاية المطاف.

لكي نفهم الأهمسا يجب أن نمارسها. فلم تكن المجاهرة بالإيمان باللاعنف كافياً بالنسبة لغاندي. "إذا لم يمارس المرء اللاعنّف في علاقاته الشخصية مع الآخرين فإنه يرتكب خطأ فادحاً. فاللاعنف، مثل المحبة، يجب أن يبدأ في البيت". اللاعنّف ليس شأنًا بسيطاً على الإطلاق، وغاندي لم يصرح بذلك أبداً. فباعتباره قاعدة نظام، "مدوّنة سلوك"، يتطلّب اللاعنّف الحقيقي احتراساً وبقظة دائمتين طوال حياة المرء، لكونه يتضمن أقولاً وأفكاراً إضافة إلى الأفعال.

أهمسا ليست فكرة جاهزة مُعدّة للإعلان. إن عدم التسبب في أذى أي كائن حي هو بلا ريب جزء من أهمسا، لكنه التعبير الأدنى عنها. فمبدأ أهمسا يتأذى بكل فكرة شريرة، وبكل تهور مفرط، وبالكذب، وبالكراهية، وبتمتّي السوء للآخرين. كما أنه يُنتهك أيضاً باستحواذنا على ما يحتاجه العالم".

يمكن بسهولة إدراك أن ممارسة أهمسا هي قضية لا يُستهان بها. فمعايشتها على نحو ملائم سيبدل نسيج الحياة. وتعلم أهمسا الحقّة قد يستغرق حياة المرء بكاملها. فغاندي لا يتحدث عن تحول آني أو لهو، وإنما عن تغيير وجه العالم، وهو جادّ فيما يقول.

"اللاعنف في شرطه الدينامي يعني معاناة واعية. إنه لا يعني خنوعاً لمشئئة فاعل الشر، بل تحريض كامل الروح ضد إرادة المستبد. وفي العمل وفق قانون وجودنا هذا بوسع فرد واحد تحدي السلطة الكلية لإمبراطورية غاشمة من أجل الحفاظ على شرفه وديانته وروحه، ووضع أساس انهيار تلك الإمبراطورية أو انبعاثها من جديد".

أهمسا ليست خنوعاً؛ هذا سوء فهم شائع. أهمسا تواجه الخصم بلطف وعطف، لكن بعزم أكيد على الصمود مهما كانت العقبات. فخلافاً للعنف، أهمسا مرهفة ونافذة بشفافية، لذا لا تكون على الأرجح واعين لعملها.

"اللاعنف يشبه الراديوم في فعله. فحقن مقدار متناهي الصغر من الراديوم في ورم خبيث يعمل بصمت وبلا انقطاع على تحويل كامل كتلة النسيج المعتل إلى كتلة معافاة. وعلى نحو مشابه، قليل من اللاعنف الحقيقي يعمل بأسلوب هادئ ولطيف ولا مرئي ويكون خميرة للمجتمع برمته".

ساتياغراها في جنوب أفريقيا، 1906

"جنوب أفريقيا هي ممثّل للحضارة الغربية، في حين أن الهند هي مركز الثقافة الشرقية. ويعتقد المفكرون المعاصرون أن هاتين الحضارتين لا يمكن أن تلتقيا. وإذا اجتمعت أمم ممثّلة لهاتين الثقافتين المتنافستين حتى في تجمعات صغيرة، ستكون المحصلة حدوث انفجار فحسب. فالغرب يعارض البساطة، في حين يعتبرها الشرقيون فضيلة ذات أهمية خاصة. كيف يمكن التوفيق بين وجهتي النظر المتعارضتين هاتين؟..."

قد تكون الحضارة الغربية صالحة، وقد لا تكون، لكن مشيئة الغربيين هي الإخلاص لها. لقد سفحوا أنهاراً من الدماء من أجلها. ولذا فات الأوان بالنسبة لهم لكي يخطّوا مساراً جديداً. ومن هذا الاعتبار، لا يمكن أن حصر القضية الهندية في إطار حرص على احتكار تجاري أو كراهية عرقية. فالمشكلة ببساطة هي سعي كل طرف إلى صون حضارته الخاصة...

الهنود يثيرون النفور في جنوب أفريقيا بسبب بساطتهم وصبرهم ودأبهم واقتصادهم في الإنفاق واعتناقهم وممارستهم مناسك غيبية مختلفة. والغريبيون مقدامون ومتأفّفون ومستغرقون في مضاعفة حاجاتهم المادية وإشباعها، كما أنهم مغرمون بلذيق الطعام والشراب وحريصون على المحافظة على العمل الجسدي ومسرفون في العادات. ولذا يخشون من أن يؤدي استيطان ألوف من الشرقيين في جنوب أفريقيا إلى زعزعة أوضاعهم. فالغريبيون في جنوب أفريقيا ليسوا مستعدون للانتحار، كما أن قادتهم لن يسمحوا لهم بالانحدار إلى مثل هذا الوضع الحرج".

الساتياغراها، عملياً، هي نهج لحلّ الصراعات. فمن المتعارف عليه أن "يُحلّ" الصراع بين أطراف متنازعة بأسلوب واحد لاغير: الإقرار بهيمنة أحد الخصوم على الآخر. فالافتراض هو أن بوسع طرف واحد فقط الانتصار على الطرف الآخر. قد يتحقق الانتصار بالاستماع إلى صوت العقل أو الإقناع بالحجة والمنطق، بالتهديد أو الابتزاز، أو بالقوة، لكن الافتراض هو ذاته في كل الأحوال: إذا كان لابد من رايح، فلا بد من وجود خاسر. حتى التسوية تستند إلى هذا الافتراض، إذ يحاول فيها أحد الطرفين الحصول على أكبر قدر مما يستطيع على حساب الطرف الآخر، مساوياً إلى أقصى حدّ تسمح له الظروف فيه.

الساتياغراها تفنّد هذا الافتراض. فبدلاً من محاولة قهر الخصم أو تجريده من حقه في المطالبة، تسعى الساتياغراها إلى تجفيف منابع النزاع. وكما أوجز غاندي ببلاغة: "[الساتياغراها] تسعى إلى تصفية العداوات وليس المتعادين أنفسهم". وجهة النظر هذه حاسمة لأنها تميّز الساتياغراها عن سواها من مناهج العمل الاجتماعية التي تسعى فقط إلى نهايات تبدو مُرضية في ظاهرها. الغاية من الساتياغراها ليس تقويم المظالم، فهذا أمر عرضي إزاء هدفها النهائي الذي هو تجفيف منابع التحتية للنزاع والعداوة وانعدام الثقة. الساتياغراها تسعى إلى حل النزاع عن طريق إقناع الخصم بالقيمة العامة لرؤيتها اللاعنفية، حيث سيكسب - ونكسب - الكثير بالتآلف عوضاً عن الشقاق. وإحداث هذه الهداية لدى الخصم هو دوماً الهدف الأولي للساتياغراها، وإن تنوّعت مناهجها الفعلية باختلاف الظروف.

الساتياغراها لا تحاول، كما هو حال العنف، أن تقصي الخصم عن المشاركة في الحل. فهي، على العكس، تحاول أن تحوّل الخصم وتغريه بالشراكة والإفادة من الحل، و"تهدف إلى تعزيز وضع كلا الطرفين". وهي لا تنظر إلى الخصم كعدو ينبغي إخضاعه، بل كشريك في البحث عن حل حقيقي للنزاع. فبدلاً من إبادته، تسعى الساتياغراها إلى كسبه إلى جانب الحقيقة، "إلى فطمه عن خطأه".

"هذا هو في الجوهر مبدأ اللاتعاون اللاعنفي. ولذا من المفترض أن يتأصل في المحبة. يجب ألا يكون غرضه معاقبة الخصم أو إلحاق الأذى به. فحتى في حال عدم التعاون مع الخصم، علينا أن نجعله يشعر أن هناك في داخلنا صديق له وأن نحاول الوصول إلى قلبه بتقديم الخدمة الإنسانية له ما أمكن".

"المبدأ الأساسي الذي تركز عليه ممارسة اللاعنف هو أن ما يصحّ بخصوص ذات المرء ينطبق على الكون برمته. كل الناس متشابهون في الجوهر. ولذا، ما هو جائز بالنسبة لي، هو جائز بالنسبة للجميع".

تقدم الساتياغراها رؤية جديدة للحقيقة واللاعنف. وتتجم ثقة غاندي بأن الخصم سوف يتبنى أخيراً هذه الرؤية من إيمانه بأن لدى جميع الناس نفس الحافز لاكتشاف الحقيقة، وبـ "أننا جميعاً مطّئين بذات الفرشاة". ولأن الساتياغراهي يرى نفسه وخصمه مجسّدين للحقيقة ذاتها، فهو يؤمن ضمناً بأن تحلّيه بـ "الصبر والتعاطف اللامحدودين" سيجعل الخصم يستجيب إلى هذه الرؤية. فالساتياغراهي يحاول تغيير علاقة الصراع إلى علاقة يسودها التقدير والاحترام والثقة، ويعمل على تطهيرها من الارتياح وسوء النية. وهذا

التحول ليس موضع شك. فالساتياغرهّي يوظّف الثقة والدعم والتعاطف -
واستعداده للمعاناة، إن اقتضت الضرورة - لكي ينور قلب الخصم ويعطل
معارضته تدريجياً.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، 1914

"ومن ثم توصلنا إلى اتفاقية مشروطة بعد ثمان سنوات من الكفاح وتم تعليق أنشطة الساتياغراها... لم يكن من السهل جعل الهنود يصادقون على هذه الاتفاقية. لا أحد كان يرغب في إخماد الحماسة التي ثارت آنذاك. فمن ذا سيثق مرة أخرى بالجنرال سُمْتَس؟ وقد ذكّرني أحد الأشخاص بالفشل الذريع في العام 1908 قائلاً: 'لقد خدعنا الجنرال سُمْتَس في ما مضى، وأتقل كاهلك بقضايا سائكة، وأخضع الجالية إلى معاناة لا تنتهي. وما يثير الشفقة هو أنك لم تتعلم الدرس الضروري من تجربة الثقة به تلك! سيخونك هذا الرجل مرة أخرى، وسوف تضطر مجدداً إلى إحياء الساتياغراها. لكن مَنْ حينها سيصغي إليك؟'..."

"لم تباغتني مثل هذه الحجج لأنني كنت أعرف أنها جاهزة. ليس من المهم كم من الخيانات يتعرض لها الساتياغراهي، فهو سيضع ثقته في الخصم طالما ليس هناك أسس مقنعة لعدم الثقة. فالألم بالنسبة للساتياغراهي يتساوى مع اللذة. وبالتالي لن يجعله الخوف الصرف من المعاناة يتوه في أزقة عدم ثقة بلا أساس. ومن جهة أخرى، وبالتعويل على قوته الخاصة، كما يفعل دوماً، سوف لن يهتم بتعرضه للخيانة من قبل الخصم، وسيواصل ثقته بالرغم من الخيانات المتكررة، وسوف يزداد إيمانه بأنه بهذه الطريقة يعزز قوى الحقيقة ويجعل النصر أقرب... عدم الثقة هي دلالة على الضعف، والساتياغراها تقتضي ضمناً إقصاء كل ضعف وبالتالي اجتناب عدم الثقة التي هي في غير محلها إن كان المراد استمالة الخصم وليس تحطيمه".

في محاولته لاستمالة الخصم، يسعى الساتياغراهي إلى التعاون مع هذا الخصم بكل السبل الممكنة من أجل بناء حالة من الثقة والاحترام. هذه العملية جوهرية بالنسبة للساتياغراهي، فعلى أساس هذه الثقة يُبنى الصرح الذي سينطلق منه كلا الطرفين بحثاً عن حل لنزاعاتهما. وفي الواقع، ليست الشروط الحالية للحل محط اهتمام رئيسي لحركة الساتياغراها؛ فهي تحاول تأسيس علاقة ثقة يمكن فيها لشروط جديدة أن ترى النور. وبالتالي فهي تجدّ في طلب التعاون أولاً وعلى الدوام:

"رغم أن اللاتعاون هو أحد الأسلحة الرئيسية في ترسانة الساتياغراها، يجب ألا يغيب عن بالنا أنه مجرد وسيلة لضمان تعاون الخصم مع الحقيقة والعدالة على نحو متسق... وبالتالي فإن اجتناب أية علاقة مع طرف معارض ليس غرضاً للساتياغراهي على الإطلاق، بل تحويل وتنقية تلك العلاقة".

إذا كانت الغاية الأساسية للساتياغراها إقناع خصمها برؤيتها، فأين هو دور الطرق الأخرى مثل العصيان المدني والإضراب واللاتعاون؟ يحتاج غاندي بأنه عندما يفشل الاحتكام إلى العقل، توفر هذه الطرق للساتياغراهي فرصة المعاناة التي هي السلاح الأخير والأنتقى لدى الساتياغراهي لضمان رؤيته.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، فولكسرست، 1913

"في غضون ذلك، أمضينا بضعة أيام سعيدة في سجن فولكسرست، حيث كان ينضم إلينا كل يوم سجناء جدد ومعهم أخبار عما يحدث في الخارج. كان من بين السجناء الساتياغراهيين رجلاً عجوزاً يناهز الخامسة والسبعين من العمر ويدعى هارياتسينه. لم يكن يعمل في المناجم التي كان الهنود قد أعلنوا الإضراب فيها. كان عقد عمله قد انتهت صلاحيته منذ سنوات ولذا لم يكن من بين المضربين. وبدا الهنود أكثر حماسة واندفاعاً إثر اعتقاله، وتم القبض على الكثير منهم لدى عبورهم من ناتال إلى ترانسفال. كان هارياتسينه أحد هؤلاء المتحمسين.

"سألت هارياتسينه: 'لماذا أنت في السجن؟ أنا لم أدعُ الرجال المسنين من عمرك إلى تشريف السجن'.

أجاب: 'كيف يمكنني الإحجام عن ذلك عندما تدخل أنت وزوجتك وأطفالك السجن من أجلنا؟'

'لكنك لن تكون قادراً على تحمل مشاق حياة السجن. أنصحك بمغادرة السجن. أسمح لي بتدبر أمر إطلاق سراحك؟'

'لا، من فضلك. لن أغير السجن مطلقاً. لا بد أن توافيني المنية يوماً ما، وسأكون في غاية السعادة إن كان ذلك في السجن!'

'لم يكن مناسباً بالنسبة لي أن أززع مثل هذه العزيمة التي لم تكن لتتهتر حتى لو حاولت ذلك. فأحنييت رأسي إجلالاً أمام ذلك الحكيم الأمي. ونال هارياتسينه ما تمنى وتوفي في سجن ديربان في الخامس من كانون الثاني (يناير) 1914.

كانت نظرية غاندي في الساتياغراها مُستخلصة من تجاربه في جنوب أفريقيا. ورغم مثالية هذه النظرية في الجوهر، كانت عملية في التطبيق إلى درجة قصوى. كان غاندي يعيش وفقاً للعقل والمنطق، بيد أنه كان يعرف أنهما لا يحركان مشاعر الناس. ونظراً لأن الساتياغراها تتوخى تحويل خصومها فعلياً، فلا بد أن تلجأ إلى القلب في نهاية المطاف. ومع ذلك، كان غاندي دوماً يناشد بالدرجة الأولى عقول خصومه، ويمكن للمرء ملاحظة ذلك في كل حملاته من خلال فائض المناشدات والعرائض والمفاوضات والمؤتمرات واقتراح الحلول والعظات. "العملية المتوجبة الأداء" هي خطوة أولى في مسار الساتياغراها، لكن غالباً ما تكون طرق الأعراف والقوانين والمصالح مغلقة أمام العقل. أو، وكما هو الحال غالباً في الصراعات، ما قد يكون حقيقة بالنسبة لأحد الأطراف يعتبر خاطئاً من وجهة نظر الطرف الآخر. مثل هذا المأزق يمثل نقطة الغليان في حالات الصراع.

"خلال تطبيق الساتياغراها، اكتشفت في السنوات الأولى أن السعي وراء الحقيقة لم يكن يجيز توجيه عنف ضد الخصم، بل العمل على فطمه عن الخطأ بالصبر عليه والتعاطف معه. فما يبدو حقيقة بالنسبة إلى أحد قد يبدو خطأ بالنسبة إلى آخر. والصبر يعني معاناة ذاتية. وبالتالي العقيدة تستوجب إثبات الحقيقة، ليس إيقاع المعاناة بالخصم بل بالذات".

عندما تُستنفذ كل محاولات تحكيم العقل ولا يتزحزح الخصم عن موقفه، مهما كانت الدواعي، يكون هناك عادةً بديلين: استكشاف سبيل لاستمالة عواطفه أو إجباره على التخلي عن مطالبه. والطرق التقليدية تعمل وفق البديل الثاني باللجوء إلى العنف، مادياً كان أم معنوياً. أما الساتياغراهي

فـيـتـجـه إـلى تـبـديـد مـقاوـمـة الخـصـم و تـغـيـير مـنـظـورـه بإيقاع المعاناة على الذات
وليس على الخصم.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، 1906 - الهند، 1931

"حتى العام 1906، عوّلتُ على مناقشة العقل فحسب. كنت مصلاً مثابراً... لكنني وجدت أن العقل كان يخفق في إحداث وُقوع عندما كانت تحين اللحظة الحاسمة في جنوب أفريقيا. كان الجالية الهندية ثائرة، فبدأت تسري أحاديث عن اللجوء إلى أعمال انتقامية تشفي غليل النفوس - فحتى اللولب المسنن يخرج عن مساره أحياناً. لقد كان عليّ حينذاك أن أختار بين مناصرة العنف أو ابتداع طريقة أخرى لمجابهة الأزمة وإيقاف الاهتراء. وخطر لي أن علينا رفض الانصياع إلى تشريع مهين، وليودعونا السجن إن شاءوا. وهكذا برزت إلى الوجود فكرة المكافئ الأخلاقي للحرب... منذ ذلك الحين ازدادت قناعتني رسوخاً بأن العقل لوحده لا يشكل ضمانة للقضايا البالغة الأهمية بالنسبة للناس، بل ينبغي رفده بالمعانة. فالمعانة هي شريعة البشر، في حين أن الحرب هي شريعة الغاب. لكن المعانة أشد قوة بما لا يقاس من شريعة الغاب في تحويل الخصم وفتح أذنيه، المسدودتين بطريقة ما، من أجل سماع صوت العقل... لقد توصلت إلى هذه النتيجة الجوهرية التي مفادها: إذا أردت لأمر هام حقاً أن يُنجز، عليك أن لا تكتفي بإرضاء العقل، بل إثارة القلب أيضاً. الحجج المنطقية تخاطب العقل أكثر، أما النفاذ إلى القلب فيأتي من المعانة التي تحرر الفهم الداخلي في الإنسان".

وهكذا تعدو المعانة الذاتية سمة مميزة للساتياغراها، السلاح الأمضى لتحريك قلوب البشر. لم تكن حركات العصيان المدني وحملات اللاتعاون والإضرابات طرفاً مُعدّة لكسر شوكة الحاكمين في جنوب أفريقيا - أو في بريطانيا، لاحقاً - بل لتليين قلوبهم من خلال معابنتهم للمعانة التي يكابدها

الساتياغراهيون بسببهم. كانت النتائج المباشرة للعصيان المدني هي السجن والتجريد من الملكية والإيذاء الجسدي والموت أحياناً حتى. وقد أكد غاندي على هذه الرؤية مراراً: "الساتياغراها وفروعها، اللاتعاون والمقاومة السلبية ليست سوى عناوين مُستحدثة لقانون المعاناة".

وفي المسعى لبناء الثقة مع الخصم، لا بد للساتياغراهي من الحرص على ألا يضايق الخصم أو يخرجه وأن يعامله بكل لطف واحترام. وبالنسبة لمراقب عابر لحملات الساتياغراها، ربما كان يبدو مثل هذا المنحى في السلوك أنه على حساب قضية غاندي. لكن التغيير ليس سهلاً، وقد تتطلب الساتياغراها، في الصراع السياسي، خرقاً للأعراف والعادات. فالساتياغراهي يدرك أن التغيير الذي يأمله من خصمه سيكون عسيراً، لذا يسعى إلى أن يكون حذراً من تعريضه إلى أية مضايقات وأن يلطف منها قدر استطاعه. فليس غرض الساتياغراهي التعدي على الناس أو إزعاجهم وإنما تغيير المنظومات التي تعيق الرفاه العام.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، ناتال، 1913

"عندما أعلن العمال الهنود في الساحل الشمالي الإضراب، أصبح المزارعون في ماونت إيدجكومب Mount Edgecombe مهددين بتكبد خسائر فادحة إذا لم يتم شحن كامل قصب السكر الذي جرى حصده إلى المعصرة. لذا عاد 1200 عامل هندي فقط إلى الحقول بهدف إنجاز هذا الجزء من العمل ومن ثم عادوا للانضمام إلى زملائهم المضربين عندما انتهوا من ذلك. وعندما أعلن المستخدمون الهنود في مجلس بلدية ديربان الإضراب عن العمل، عاد الذين كانوا يعملون في قطاع الخدمات الصحية، وكذلك العاملين كمرافقين للمرضى في المستشفيات، إلى العمل بطيبة خاطر وواصلوا أداء واجبهم. فلو حدث خلل في الخدمات الصحية، ولم يكن هناك من يعتني بالمرضى في المستشفيات، لتفشّت الأمراض في المدينة وحُرم المرضى من المساعدة الطبية، وما من ساتياغراهي كان راعياً في مثل هذه العواقب. لذا تم استثناء العاملين في المجال الصحي من الإضراب. فالساتياغراهي، في كل خطوة يخطوها، مُلزم أخلاقياً بمراعاة وضع خصمه. كنت أرى حالات كثيرة من مثل تلك الشهامة تترك آثارها المنظورة، بل والفعالة، في كل مكان... وتهدئ جوّاً ملائماً للاستقرار".

المشاركة الوجدانية والصبر والثقة والاستعداد للمعاناة هي "الأسلحة" الأساسية التي يحول بها الساتياغراهي خصمه ويغير طبيعة علاقة الصراع. وعضواً عن الارتياح والعداوة تنشأ الثقة والاحترام والتعاون. وعندما يتحقق ذلك، كما يعتقد غاندي، سَتُحلّ نقاط الصراع وديّاً، لأن "الخصم" غداً، بمعنى ما، حليفاً، ويدرك الوعد الذي يَعد به الحل التعاوني لكلا الطرفين، ويتفهم أن

ثمة على المحك ما هو أعلى شأنًا من المصالح الفردية الخاصة فيعمل على إخضاعها إلى ذلك الوعد. ويسهم الخصم في الرؤية الساتياغراهية، ولا يلبث أن يصبح ساتياغراهياً بطريقة ما. "هداية" الخصم هذه هي المقصد الحقيقي للساتياغراها، واستخدامها للإضرابات والتظاهرات وما شابه هي مجرد أدوات لتحقيقها.

"الاعتبار المفصلي للانعف هو غياب أي أثر للضعينة في الصراع اللاعنفي، فيتحول الأعداء إلى أصدقاء في نهاية المطاف. كانت تلك تجربتي في جنوب أفريقيا مع الجنرال سمتس الذي بدأت علاقتي معه بخصومة مرّة، لكنه اليوم من أعز أصدقائي...".

الرؤية التي تحاول الساتياغراها إقناع خصومها بها تتجاوز مظالم معينة في صراع محدد، مثل تشريع تمييزي أو ضرائب مجحفة، التي هي عادة أعراض لجور أشد أو "زيف"، وتحسينها هو الهدف الحقيقي للساتياغراها. وعلى هذا النحو، لا تتعهد حملات الساتياغراها بمجابهة أية مظالم معينة بتعتت؛ فهي، في هذا الخصوص، مفتوحة الآفاق. فالساتياغراها، مع التأكيد على الحد الأدنى الذي لا يمكن الانتقاص منه - الولاء الراسخ للحقيقة واللاعنف - لا يحدّها قيد في التكيف مع ديناميات الصراع. ويضفي هذا الانفتاح على الساتياغراها نوعاً من المرونة التي تجعلها قادرة على تغيير الموقف حينما تتبدى حقيقة وضع ما في ضوء جديد تبعاً لتغير الظروف. وهذا ما يدعوه غاندي "قانون الارتقاء" Law of Progression.

"لقد علمتني تجربتي أن قانون الارتقاء ينطبق على كل صراع مبرر أخلاقياً. لكن في حالة الساتياغراها، يبلغ القانون حدّ المسلمة. فمع تقدم

حملة الساتياغراها إلى الأمام، تساعد عناصر أخرى كثيرة على رفق مجراها فيكون هناك نمو مضطرب في النتائج التي تؤدي إليها. هذا الأمر محتوم حقاً وغير منفصل عن المبادئ الأولى للساتياغراها. ففي الساتياغراها، الحد الأدنى هو أيضاً الحد الأقصى؛ وبما أن الحد الأدنى لا يمكن الانتقال منه، فلا ميرر للشك في حصول تفهقر، واتجاه الحركة الوحيد الممكن هو إلى الأمام".

المرونة وفقاً للأحوال تشجع الساتياغراهي على البحث المستمر عن الحقيقة، حتى ضمن موقف خصمه، وعلى دمج تلك الحقيقة في موقفه هو. وهذا ما يمثل خطوة حاسمة، لأن مجرد ميل المرء إلى إعادة النظر في موقفه يمكن أن يبطل مفعول حالة الصراع، مما يجعله أقل تصلباً ويخلق مناخاً يمكن فيه الأخذ والعطاء. ضمن هذا المناخ من الثقة، يمكن للدعاءات المتعارضة أن تتطور في أسلوب مركب وموحد عن الحقيقة. هذه العملية هي تعبير إجرائي للرؤية المتكاملة للساتياغراها، حيث أننا جميعاً، في الواقع، باحثون عن الحقيقة. وبالتالي سيؤكد غاندي على أن "الساتياغراهي لن يفوت فرصة التسوية في شروط مشرفة...". فالرؤية المتكاملة للساتياغراها تنبثق من صلب الضرورة الإنسانية، وهي بالتالي قاهرة. وفي ضوءها الكاشف، تتزاح العداوات الصغيرة والنظلمات جانباً وتفسح المجال لبحث عن الانسجام أكثر وعداً.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، ترانسفال، 1914

"اتجهت إلى بريتوريا برفقة أندروز. في ذلك الوقت بالضبط، كان هناك إضراب كبير للمستخدمين الأوروبيين في نقابة السكك الحديدية، مما جعل وضع الحكومة بالغ الدقة. ودُعيت لكي أبدأ مسيرة هندية مناهضة للحكومة في تلك المرحلة المفصلية. لكنني أعلنتُ أن الهنود لا يمكنهم مساعدة المضربين في السكك الحديدية، لأن كفاحهم مغاير تماماً لكفاحنا، وإدراكه مختلف أيضاً. فحتى لو تعهدنا الشروع بمسيرة فسيكون ذلك في وقت آخر تكون قد انتهت فيه الاضطرابات في السكك الحديدية. كان لقرارنا وقعاً عميقاً فتداولته وسائل الإعلام على الفور. وأبرق اللورد أمبثيل [وزير المستعمرات] مهنتاً من إنكلترا. كما ثمن الأصدقاء الإنكليز في جنوب أفريقيا قرارنا هذا".

نجاح الساتياغراها لا يعتمد إطلاقاً على قبول شروط معينة، وإنما تُقوّم فقط بطهارة قضيتها والثبات الذي تلتزم فيه تجاه الحقيقة واللاعنف. بالنسبة لغاندي، لا يمكن بلوغ غاية طاهرة إلا إذا كانت الوسائل طاهرة، فهو يرى أن "الارتباط الوثيق بين الوسائل والغاية هو ذات الارتباط بين البذرة والشجرة". وهو يحثّ الساتياغراهي على تفحص مسعاه بدأب، لأن "المسعى التام هو النصر التام". إذا كانت الوسائل نقية فإن الغاية سترعى نفسها، أما إذا كانت الوسائل مستلبة من قبل الزيف والعنف فإن الغاية ستكون مستلبة على نحو مماثل. هذا هو المنطق السليم بالنسبة لغاندي:

"أهمسا هي الوسيلة؛ الحقيقة هي الغاية. والوسائل، لكي تكون وسائل، ينبغي أن تكون في متناول اليد دوماً، وبالتالي أهمسا هي واجبنا الأسمى. إذا اعتنينا بالوسائل، من المؤكد أننا سنصل إلى الغاية عاجلاً أم آجلاً.

وبتوصلنا إلى هذه النقطة الفاصلة لا يعود النصر النهائي موضع شك. ومهما كانت الصعاب التي نواجهها، ومهما كانت النكسات التي نتكبدها، يجب ألا نتخلى عن طلب الحقيقة".

في الصراع العنفي، حالة من المرارة والعداوة تصاحب الإخضاع ويمكن أن تتقيح مثل الدملة، فتضعف أساس المنجز، أو تنفجر وتحوله في اتجاه عكسي. في الساتياغراها الحقيقية، يبرز كلا الطرفين كشريكين في الحل، ويجري التخلص من الصراع والعداوة والارتياب. ويكفي المرء إمعان النظر في مشهد مغادرة القوات البريطانية الاستعمارية للهند في العام 1947، في جو من البهجة المتبادلة، لكي يتأكد من هذه الحقيقة. وقد أشار أرنولد توينبي آنذاك إلى أن غاندي لم يحرر الهند فحسب، بل حرر بريطانيا العظمى أيضاً.

الساتياغراها في جنوب أفريقيا، ترانسفال، 1914

"قال لي أحد سكرتيري الجنرال سمتس مازحاً: 'أنا لا أحب قومك، ولا أهتم بمساعدتهم إطلاقاً. لكن ماذا أفعل؟ أنت تساعدنا وقت الحاجة. كيف لنا أن نلومك؟ لطالما تمنيتُ أن تلتزم جانب العنف مثل المضربين الإنكليز، حينها سنعرف على الفور كيف نسوي الأمر معك. لكنك لن تؤذي حتى عدوك. فأنت تبتغي الانتصار ملتزماً بحدود مفروضة ذاتياً قوامها اللطافة والنبيل. وهذا ما يجبرنا على الوقوف عاجزين".

الساتياغراها اليوم

لقد ألقينا نظرة، حتى الآن، على الطريقة التي تعمل فيها الساتياغراها في الفضاء السياسي، بيد أن المبادئ الموجّهة للساتياغراها تنطبق على القضايا الشخصية والمنزلية والمجتمعية على حد سواء. فغرض الساتياغراها هو حلّ أسس الصراع - أي صراع - واجتذاب المتعادين إلى ميدان التفاهم المشترك والتعاون. بالنسبة لغاندي، لم يكن يهم إن كان المتعادون هم حزب المؤتمر الهندي والحكم البريطاني، أو مجموعة من القرويين وملاك الأراضي، أو زوج وزوجة. وكان يعتقد أنه يمكن استخدام الساتياغراها "من قبل الأفراد ومن قبل المجتمعات المحلية أيضاً. ويمكن استخدامها في القضايا السياسية كما في الشؤون المنزلية. قابليتها الشاملة للتطبيق برهان على ديمومتها ومناعتها".

كان من الواضح أن لدى غاندي من الأفكار ما يتجاوز التطبيقات السياسية الحصرية التي نمائل بينها وبين الساتياغراها اليوم. فهو يرى في الساتياغراها موقفاً أساسياً في القضايا الإنسانية ويعدها حلاً شاملاً للنزاعات. ومن أجل استيعاب الساتياغراها بتمام الفهم الغاندي لها علينا الابتعاد عن الاعتقاد الراهن الذي لا يرى فيها سوى شكل من أشكال الاحتجاج الجماهيري اللاعنفي، وأن نحاول فهمها بكامل تشعباتها. وبهذه الطريقة ستكون فائدة الساتياغراها لحيواتنا الخاصة أكثر جلاء.

"الساتياغراها الذاتية"

الساتياغراها، بدقيق العبارة، ليست "منهجاً" أكثر من كون المحبة منهجاً. فغاندي ينظر إلى الساتياغراها جوهرياً على أنها موقف، شرط داخلي للمحبة اللاعنفية يوطّر علاقتنا مع باقي البشر. هذا الموقف نابع من الداخل، وليس من الخارج. فالساتياغراها، كما فهمها غاندي، هي مسألة شخصية أولاً وأخيراً. وكتب يقول: "لقد أكدت دوماً على أنه حتى لو كان هناك فرد واحد يلتزم تمام الالتزام باللاعنف، فسيكون بوسعه إطفاء الحريق". ولذا كان غاندي يؤمن بالفردية الجوهرية للساتياغراها، حيث يقول أخيراً: "إذا صمد ساتياغراهي واحد حتى النهاية، فالنصر أكيد". ويعيداً عن مبدأ العمل الجماهيري، الساتياغراها هي جوهرياً شأن خاص يبدأ من داخل قلب الإنسان، ولا تتطلب أتباعاً لكي نُعوّم نفسها. قوة الساتياغراها لا تتعلق بالعدد؛ فهي قابلة للنقل، مثل مصباح صغير لكنه وهّاج يمكن توجيهه على أية زاوية من زوايا الحياة عتّم عليها الصراع أو التوتر. كتب غاندي: "ذلك هو جمال الساتياغراها. إنها تصل إلى ذات المرء مما يعفيه من البحث عنها خارجاً". الساتياغراها لا تحتاج سوى إلى ترسيخها في أعماق القلب. هذا هو المستلزم الأساسي والأول لساتياغراها غاندي، وكلما إدركنا هذا بوضوح أكثر، أصبح بإمكاننا أسرع استخدام الساتياغراها من أجل بلسمه جراح الصراع.

لكن فهم هذا ليس كافياً. فكما رأينا، الساتياغراها تنشأ من المبدأ الهادف إلى اجتثاث النزوع نحو المصلحة الشخصية. وكان غاندي متصلباً في هذا الخصوص: "بدون التطهّر الذاتي سيبقى التقيد بقانون أهمسا مجرد سراب".

وبوسع الفرد إنتاج قوة ساتياغراها "لا تقاوم" فقط عندما يكون قد أصبح "مجرداً من الهوى في التفكير والخطاب والعمل"، وقادراً على "التعالى على الاتجاهات المتعارضة للمحبة والكراهية، والتعلق والنفور". وتجريد الساتياغراها من مبادئها يضمحل منبع قوتها الأساسي، "قوة الروح" التي هي وحدها تستدعي اهتمامنا. من يدرس فكر غاندي لكي يكتسب معرفة بمنبع القوة اللاعنفية سيرتد مراراً إلى ذاته بغية تأسيس حالة اللاعنف في وعيه بالذات. وقد كتب غاندي في أواخر الثلاثينات: "ليس هناك من طريق ملكي سوى عيش العقيدة في حياتك، والتي لا بد أن تكون موعظة حية. سيقضي هذا، بالطبع، دراسة عميقة ومثابرة عظيمة وتطهير شامل للذات...". ولا داعي للقلق إن استغرق الأمر فترة طويلة، لأنه "إذا كان هذا هو السبيل الوحيد الدائم والمؤثر في الحياة، فمهما بذلت من جهد لن يضيع هباء. 'إسعأ أولاً إلى مملكة السماء وستتضافر كل الأمور معك'. ومملكة السماء هي أهمها".

إنها مهمة مكلفة. فما يطلبه غاندي يعادل ضرباً من "الساتياغراها الذاتية" التي يفرضها الفرد على نفسه لكي يعطل أثر المصلحة الشخصية. وبوسع غاندي أن يطلب ذلك، لأنه، وعلى نحو مميز، فعله تماماً بنفسه. فالليلة الطويلة التي قضاها غاندي في محطة القطار الموحشة في ماريتزبرغ أجبرته على النظر إلى أبعد من نفسه للمرة الأولى، أبعد من احتياجاته الخاصة وفي صميم المعاناة المرعبة لأبناء جلدته المفقرين والمستغنين. لقد غيرته الرؤية التي استحوتت عليه خلال تلك الساعات الطويلة الكئيبة بانتظار الفجر، غيرت طريقته في النظر إلى الحياة والغرض منها.

وسيتحدث غاندي في ما بعد عن عدد من الملهمين في حياته - تولستوي ورسكين Ruskin وغيرهما الذين وجهوا خطاه إبان تمرد الزولو والحلم في مدراس Madras الذي ألهمه ملحمة مسيرة الملح - لكن تجربته في تلك الليلة الباردة في ماريتزبرغ أثبتت أنها المحفز الذي أثار سلسلة طويلة من الخبرات التي حولته كلياً في الوقت المناسب. لقد امتدت حركة الساتياغراها في جنوب أفريقيا أكثر من عقد من الزمن ولم تكن الفكرة ذاتها قد اختمرت بعد في ذهنه. سنوات السعي الحثيث تلك التي تحول فيها غاندي واجتث النزوع إلى المصلحة الشخصية في داخله تشير إلى أن الساتياغراها الذاتية النقية ذاتها هي ما يطلبه منا. وبهذا المعنى، لم يكن غريم غاندي الأول في المقاومة اللاعنفية الجنرال سمتس أو حكومة جنوب أفريقيا، بل موهنداس غاندي؛ فقد كان إطار حملته اللاعنفية الأولى والأشد ضراوة هو وعيه بالذات. وقد صاغ ذلك الكفاح الساتياغراهي الأول، ومن "محام بلا موكلين" انبثق "المهاتما"، الروح العظمى. ولتتبع المنبع الحقيقي لقوة غاندي اللاعنفية، علينا النظر إلى ما هو أبعد من فترة الجيشان السياسي في الهند التي يعرفها العالم؛ النظر إلى تلك السنوات التكوينية الهادئة في ريف ناتال وترانسفال. فهناك اكتسب غاندي الخبرة واكتشف الدرب الذي سيحول روحياً ذلك المحامي البسيط غير الواثق من نفسه، وهناك بوسعنا اكتشاف منابع ذلك التحول من أجل استنارتنا الخاصة.

لكننا سنجحف بحق غاندي إن تبنيناه حرفياً وحاكينا فحسب على المستوى السطحي. فمن مجانبية الصواب أن نطلق شعر رؤوسنا ونرتدي الدهوتي القطني، ونعتاش على الفواكه والمكسرات وحليب الماعز لأن غاندي

كان يفعل ذلك. علينا أن نكون يقظين في اتباع غاندي ونتأكد أننا نقبض على المبادئ الأساسية وليس فقط الرموز التي كان يوصل بها رسالته. فالصبر والتعاطف والاستعداد للتحمل هي المعايير الجوهرية للساتياغراها الذاتية، كما هي بالضبط للساتياغراها السياسية. وتنظيم حيواتنا وفقاً لهذه المثل - كما فعل غاندي - يؤسس الخطوة الأولى على طريق اللاعنف الحقيقي المستدام.

الساتياغراها العائلية

توفر العلاقات الشخصية أرضاً خصبة لتعلم الساتياغراها واستخدامها. وهذا ما أسماه غاندي "الساتياغراها المنزلية". وتتشكل لدينا فكرة واضحة عما كان يعنيه عندما نتمعن في مسيرة حياته المبكرة في جنوب أفريقيا - ليس في الساتياغراها كما توجب عليه أن يطورها في ما بعد، بل كما استخدمت تجاه نفسه، وهو اللافت في الأمر. كان غاندي زوجاً نزاعاً إلى الاستبداد وفضلاً أحياناً خلال تلك السنوات في جوهانسبرغ، لأنه كان يعتقد، كما يروي بنفسه، أنه كان من حقه أن يفرض إرادته على زوجته. وعندما كانت كاستورباي تعترض على هذا التسلط، كان غاندي يزداد تعنتاً. لكن كان لدى كاستورباي إدراك حدسي لخصائص المحبة اللاعنفية، فأثبتت، خلال تلك السنوات العائلية الصاخبة، أنها ندد لغاندي. واستطاعت بسلوكها هذا أن تحول علاقته بها، ومع الزمن أهمته جمال وقوة المقاومة اللاعنفية.

"لقد تعلمت درس اللاعنف من زوجتي عندما حاولت أن أُملي عليها إرادتي. فمقاومتها الحازمة من جهة، وإذعانها الهادئ للمعاناة التي تسببها لها حماقتي من جهة أخرى، جعلاني أخيراً أخجل من نفسي وأتعافى من تلك الحماقة... وفي النهاية، غدت هي معلمتي في اللاعنف".

لقد كانت كاستورباي، بدون معرفة منها، تستخدم الأسلحة الأولية للساتياغراها لاستمالة زوجها: الاستعداد للمعاناة بدلاً من مقابلة الأذى بمثله، والإرادة الراسخة.

تقف الساتياغراها العائلية، كما هو حال جميع ضروب الساتياغراها، على هذا التوازن المرفه للصبر والعزم، الذي يمكن أن يصبح، عندما يُطبق

على نحو صحيح، حجر الأساس للعلاقات الشخصية الحميمة بين الرجال والنساء. وللاكتشاف الذي حققه غاندي داخل بيته في منطف القرن في جوهانسبرغ أهمية حاسمة في الوقت الراهن، حيث أصبحت هذه العلاقات اليوم مشحونة بالتوتر والمنافسة. قلّة من الأسر اليوم تبدو قادرة على تفهم توترات الحياة الزوجية، بما فيها تلك المتوقعة، لذا أصبح النفور والاعتراب من المكوّنات الشائعة في الحياة المنزلية العصرية. عند هذا الدرك الأسفل في التعايش العائلي، يبدو أسلوب غاندي صائباً على وجه الخصوص: اغفر، اصبر، ساند الآخر دوماً، وقاوم إن استدعت الضرورة، بمحبة وبلا ضغينة. ويبلغ هذا المثال ذروته حين تصبح رفاهة الزوجة أكثر أهمية بالنسبة للزوج من سعادته الخاصة، وتصبح رفاهة الزوج على نفس القدر من الأهمية بالنسبة للزوجة. ويشير هذا النوع من العلاقة إلى واحدة من المآثر الأكثر سموّاً للإهمسا الحقيقية.

للساتياغراها منزلة فطرية في العلاقة بين الأهالي والأطفال. وهنا مجدداً، يشكل الصبر الممزوج بالحزم إطاراً للفهم والأداء. ف "الحد الأدنى الذي لا يُنقص" في الساتياغراها العائلية هو أن رفاهة الأطفال تأتي في المرتبة الأولى؛ لنموهم وتطورهم أولوية على كل شيء آخر. وهذا يعني القيام بتضحيات ثانوية للذائد صغيرة أحياناً أو الاكتفاء بما هو حاجة ضرورية أحياناً أخرى. والأكثر أهمية، وفقاً لتفكير غاندي، هو أن يكون النموذج المحدد من قبل الوالدين متطابقاً مع مثلهم. فعندما انتقل غاندي إلى مزرعة تولستوي في العام 1909، كانت تعجّ بالأطفال من كل المشارب، وسرعان ما ضمهم تحت جناحيه الأبويين. كانوا خليطاً "لا متجانساً"، لكنهم كانوا، في

نظرة، يؤلفون "عائلة واحدة" معه. وكتب بهذا الخصوص: "أرى أنني لابد أن أكون صالحاً وأعيش مستقيماً، ولو كان من أجلهم فقط". لقد بذر غاندي بذور الساتياغراها العائلية في تربة مزرعة تولستوي الخصبة، ورعاها بدرية لسنوات إلى أن أينعت؛ وما لبثت أن أصبحت هذه العلاقة المتطلبّة مع الأطفال وضعاً طبيعياً لا تستدعي الكثير من الجهد.

في ثلاثينيات القرن، جاءت امرأة إلى سيفاغرام [قرية الخدمات] راجية غاندي أن ينصح ابنها بالتوقف عن التهام السكر لأنه يؤذيه. كان جواب غاندي مقتضباً: "من فضلك، عودي الأسبوع القادم".

احتارت المرأة، لكنها عادت بعد أسبوع ممتلئة بإذعان إلى تعليمات المهاتما. قال غاندي للفتى عندما التقاه: "أرجو ألا تأكل السكر لأنه ضار بصحتك". ثم مزح الفتى قليلاً وعانقه قبل أن ينصرف. لكن الأم التي لم تستطع كبح فضولها تريّنت قليلاً لكي تسأل غاندي: "بابو، لماذا لم تقل لي هذا الأسبوع الماضي عندما أتينا؟ لماذا جعلتنا نعود ثانية؟".

ابتسم غاندي قائلاً: "الأسبوع الماضي كنت أنا أيضاً ألتهم السكر".

كان غاندي شخصانياً في كل علاقاته. حتى في ذروة حركة التحرر في الهند لم يكن يسمح لحملاته بالانجراف إلى أوضاع لا شخصانية. فبغض النظر عما قد يبديه خصومه من التزام مؤسستاتي خلف أروقتهم المرخّمة وألقابهم التي تسبق أسمائهم، كانوا ينظر إليهم دوماً بوصفهم أشخاصاً أولاً، "مطلّيين بالفرشاة ذاتها" وأقرباء له في الأسرة الإنسانية. لم تكن العلاقات الشخصية ترفاً بالنسبة لغاندي ولا عبئاً ثقيلاً، بل تعبير طبيعي وحيوي للأهمسا؛ إذ أنها، وفي أي مستوى من التفاعل الإنساني، تشيد منبراً لعمل

الساتياغراها. ومن المثير للاهتمام مراقبة التطور التدريجي لدائرة غاندي الصداقية بدءاً من عائلته المباشرة في بوريندر وجوهانسبرغ، مروراً بأتباعه الكثر الذين يعيشون في الأشرمات، وانتهاءً بالهند وبقاع كثيرة من العالم.

الساتياغراها في العمل

إحدى النتائج الطبيعية للساتياغراها المشخّصنة هي سهولة تطبيقها في أماكن عملنا. فما يصحّ على العلاقات العائلية يصحّ، جزئياً على الأقل، على العلاقات في العمل، وإذا كان ثمة ما يعوق هذه العلاقات عاطفياً مقارنة مع ما هو الحال في البيت فسيكون لها أثر تفتيتي. العمل لا يتوقف، وحيثما يعمل الناس بالتماس مع بعضهم، يكون التوتر مرجحاً بسبب تضارب المصالح الشخصية. فلا سبيل إلى اجتناب الخلاف ما دام الأفراد في بيئة العمل يُعلون من شأن مصالحهم الشخصية على كل ما عداها. وغالباً ما تتمحور النزاعات الناشبة حول آراء وأذواق شخصية، مما يجزّ إلى خلاف في طرق تسيير الأمور؛ وتشحنها حالات تافهة من الغيرة والاستياء على نحو متواتر. وقد تبدو "القضايا" في معظم النزاعات مهنية، أو حتى فكرية، لكن نظرة عن كثب تكشف على الأغلب عن أنويتين متمترستين بخفاء في الصراع الشخصي. فالطريقة "الأفضل" لعمل الأشياء هي عادة "طريقتي"؛ كما عبر عن ذلك حكيم هندي: "كل واحد يعتقد أن ساعته تشير إلى الوقت الصحيح".

في ساتياغراها العمل، لا بد من بذل جهد لتوضيح حال الأفضليات الشخصية وبالتالي تمكين كلا الطرفين من الرؤية من منظور أوسع وأكثر صدقاً. والساتياغراهي الذي ارتقى فوق المصلحة الشخصية، والذي بوسعه أن يستشعر أبعد من آرائه الشخصية، هو في موقع يخوّله معاينة النزاع بموضوعية أكبر ويكون بالتالي قادر على البحث عن أرضية مشتركة. وإذا أخفقت المناشدات المُعقلنة، لا بد للساتياغراهي من أن يكون مستعداً، كما في

جميع حالات الساتياغراها، للتخطي بالصبر من أجل استمالة أطراف النزاع إلى تبني رؤية أكثر سموًا. ولذا تكون مهمة الساتياغراها هنا هي العمل بصمت وثبات من أجل التقليل من أثر المصلحة الشخصية في بيئة العمل عبر الدعوة إلى هدف موحد وأكثر شمولاً. ويكفي فرد واحد لإشاعة التأثير المُخمر للأهمسا في مكتب أو موقع عمل أو مدرسة، أو حتى في مؤسسة كبيرة. فكما أشار غاندي، ساتياغراهي مكرس واحد بوسعه إحداث تغيير بحيث يمكن أن يسير العمل في جو من الثقة المتبادلة والتعاون. وقد يقول غاندي، محاكياً البوذا، إن هذا هو النوع الأكثر سموًا للعمل.

وكما رأينا، إحدى السمات الرئيسية للساتياغراها هي "مرونتها" وقدرتها على التكيف مع سياقات جديدة مع ولائها لمبادئها المتمثلة في الحقيقة واللاعنف التي لا يمكن الانتقاص منها. ولم تكن هذه المرونة يوماً أكثر أهمية مما هي اليوم، حيث تختلف تماماً التحديات التي نواجهها عن تلك التي واجهها غاندي. فالاكْتفاء بمحاكاة أشكال حملات غاندي السياسية، مثل التظاهرات والإضرابات، سيقصر الساتياغراها بشكل تراجمي على سياق ضيق للإصلاح السياسي. الأزمات التي تهدد حيواتنا اليوم ليست سياسية بقدر ما هي روحانية؛ العزل والانعزال الشخصي والاجتماعي، والاستقطاب المتزايد بين الرجال والنساء وبين الشباب والأكبر سناً. وبالنتيجة، يقتضي منا هذا الزمن تحرك حازم صوب اللاعنف والوحدة ضمن عائلاتنا وفي صفوف مجتمعاتنا المحلية.

يعتقد غاندي أنه عندما تتغلغل قيم اللاعنف في حيوات ملايين الأفراد، سوف تبدأ مؤسسات أضخم في عكس هذه القيم أيضاً. فالمسار الذي يرسمه

يبدأ بالمنمنمات، في البيت وفي داخل كل فرد وفي أوساط الأصدقاء، ويتسع قوسه تدريجياً ليشمل المجتمع المحلي ومن ثم المجتمع بأسره، وربما العالم في الوقت المناسب. ولا نحتاج إلى برهان إضافي على هذا أكثر من حياة غاندي نفسه التي كانت دعوة صامتة لكنها حائئة على محبة أعظم وخدمة أعم.

كتب أخرى عن غاندي وأهمسا

تتقسم الكتب التالية إلى فئتين: الأولى تمكّن القارئ من التعرف على غاندي الإنسان وأفكاره، والثانية تساعد الذين يرغبون في ترجمة بعضاً من مُثل غاندي إلى حيواتهم الخاصة في الغرب اليوم.

غاندي الإنسان

كان غاندي كاتباً غزير الإنتاج، له الكثير من المقالات الصحفية والرسائل والخطب. ويمكن العثور على معظم الاقتباسات عن غاندي الواردة في هذا الكتاب في ثنايا المجموعتين الشاملتين التاليتين:

- أفكار المهاتما غاندي¹.

- جميع البشر أخوة².

ويقدم كل من هذين الكتابين عرضاً شاملاً لأفكار غاندي في كل مظاهر حياته ونشاطه ومعتقداته.

لم يكتب غاندي سوى مؤلفين مطولين، وكلاهما كتبه أثناء وجوده في السجن. أحدهما كان سيرة ذاتية: قصة تجاربي مع الحقيقة³. لكنه كتاب شخصي للغاية وأميل ما يكون إلى النقد الذاتي. وبما أن السرد فيه لا يمضي أبعد من العام 1921، ولكونه يركز في المقام الأول على التطور الروحي لغاندي أكثر من نشاطه السياسي العام، وبالتالي لا يحوز على الكثير من

¹ The Mind of Mahatma Gandhi, edited by R. K. Prabhu and U. R. Rao (Ahmedabad: Navajivan Publishing House, 1960)

² All Men are Brothers, edited by Krishna Kripalani (New York: Columbia University Press, 1958)

³ Autobiography: The Story of My Experiments with Truth (Boston: Beacon Press, 1957)

الاهتمام لدى القراء الغربيين، فإن السيرة الموجزة التي أعدها لويس فيشر غاندي: حياته ورسالته من أجل العالم⁴ تملأ الفجوة الحاصلة. ففيشر كان يعرف غاندي شخصياً، وأضفى في كتابه شفافية على الأسس الروحية لحياة غاندي وعلى غاندي الإنسان.

وبالنسبة للذين يرغبون في معرفة المزيد من التفاصيل عن حياة غاندي والخلفية التاريخية للحركة من أجل استقلال الهند، ثمة كتاب آخر للويس فيشر هو حياة المهاتما غاندي⁵. وهو العمل الرئيسي لفيشر حول هذا الموضوع.

وتجدر الإشارة إلى كتابين آخرين ممتازين يتناولان سيرة غاندي هما:

- Mahatma, by D. G. Tendulkar (Bombay: Vithalbai K. Jhaveri and D. G. Tendulkar, 1951).
- Mahatma Gandhi: The Early Phase, by Pyarelal (Ahmedabad: Navajivan, 1956).

تطبيق أفكار غاندي في البيت

بهعقد غيتا، "المرجع الروحي" لغاندي، هو أحد الأعمال الأكثر عمقاً وعمليةً للمتصوفة في كل اللغات. وقد وضع إكناث إيسوران كتابه "البهعقد غيتا للحياة اليومية"⁶ من أجل الذين يرغبون في وضع الغيتا موضع التطبيق، كما فعل غاندي. وقد اعتمد إيسوران على تجربته في توضيح كيف يمكن

⁴ Gandhi: His Life and Message for the World, by Louis Fischer (New York: New American Library, Signet Books, 1954)

⁵ The Life of Mahatma Gandhi (New York: Macmillan, Collier Books, 1962)

⁶ The Bhagavad Gita for Daily Living (Petaluma, Calif.: Nilgiri Press, 1975)

ترجمة كل بيت شعر من الغيتا إلى الحياة اليومية. وهناك ترجمة أخرى ممتعة وموثوقة، بدون شروحات، قام بها سوامي براهافاناندا بمساعدة كريستوفر إيشروود وهي *أنشودة الإله: بهَّغفاد غيتا*⁷.

لقد اقتصرَت تعليقات غاندي القليلة والمباشرة حول ممارسته الروحية الفعلية على استخدام التلاوات. لكن كتاب *إكناث إيسوران دليل التلاوات*⁸ يقدم عرضاً عملياً وشاملاً لاستخدام التلاوات من أجل الناس المؤمنين بأي ديانة أو ليسوا مؤمنين.

بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بتجريب أنظمتهم الغذائية، يتوافر العديد من كتب الطبخ النباتي المفيدة، منها *مطبخ لوريل*⁹، وهو دليل شامل للطبخ النباتية التغذية مُصنَّف من وجهة نظر إيسوران.

⁷ Song of God: Bhagavad Gita, (New York: New American Library, 1944).

⁸ The Mantram Handbook (Petaluma, Calif.: Nilgiri Press, 1977)

⁹ Laurel's Kitchen, by Laurel Robertson, Carol Flinders, and Bronwen Godfrey (Petaluma, Calif.: Nilgiri Press, 1976)

الفهرس

7	تصدير (مايكل ناغلر)
13	التحول
37	درب المحبة
69	الأم والطفل
83	غاندي الإنسان
97	ملحق: كيف يفعل اللاعنف فعله (تيموثي فلنדרز)
139	كتب أخرى عن غاندي وأهمسا
	صور

صدر عن دار معابر للنشر

- قاموس اللاعنف، جان ماري مولر، تقديم: د. وليد صليبي، ترجمة: محمد علي عبد الجليل (بالتعاون مع الهيئة اللبنانية للحقوق المدنية، بيروت)، 2007.
- التأمل، جِدُو كريشنامورتي، ترجمة وتقديم: ديمتري أفبيرينوس، 2008.
- على خطى غاندي، كاثرين إنغرام، ترجمة: أديب خوري، تدقيق: ديمتري أفبيرينوس، 2008.
- المحبة في العمل، تيك نات هانه، ترجمة: غياث جازي، تدقيق: أكرم أنطاكي، 2008.
- كتابات وأقوال للمهاتما م. ك. غاندي، ترجمة: أكرم أنطاكي، مراجعة: هفال يوسف، 2009.
- فلسفة اللاعنف، ديفيد مكربنولز، ترجمة: ديمتري أفبيرينوس، 2009.
- اللاعنف في التربية، جان ماري مولر، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.
- ليف تولستوي: مختارات من كتاباته الفكرية والفلسفية، ترجمة: هفال يوسف، 2009.
- سيمون فايل: مختارات، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.
- البحث عن مستقبل لاعنفي، مايكل ن. ناغلر، ترجمة: غياث جازي، 2009.
- أنا وأنت، مارتين بوبر، ترجمة: أكرم أنطاكي، 2010.
- التجذُر، سيمون فايل، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2010.
- ملكوت الله في داخلكم، ليف تولستوي، ترجمة: هفال يوسف، 2010.
- صوت الصمت، هيلينا بلافانيسكي، ترجمة: أكرم أنطاكي، 2011.
- شبكة الفكر، جِدُو كريشنامورتي، ترجمة: يارا البرازي، 2011.
- من البيئة إلى الفلسفة، معين رومية، 2011.
- غاندي المتمرد، ملحمة مسيرة الملح، جان ماري مولر، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2011.

يصدر قريباً:

المنهج الحيوي الطاقوي، ألكسندر لوون، ترجمة: نبيل سلامة.